دلالات الحروف وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم

تأليف

دكتور / رجب محمد سالم رفاعى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الحق المبين ، الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على رسول الله الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً . وبعد

فإن دراسة كتاب الله تعالى، والبحث عن أسراره ، والوقوف على أوجه إعجازه والتنقيب عما فيه من نفائس ، والتقاط مافيه من جواهر ، غاية عظمى شغلت الكثير من العلماء منذ وقت مبكر ، واستحوذت على اهتمامهم .

ولما كان القرآن الكريم وهو كلام رب العالمين فى قمة البلاغة والبيان ، ومعجزة رسول الله ﷺ الكبرى إلى أن تقوم الساعة ، والذى تحدى به العرب قال تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾(٢) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٨

لذلك راح كثير من العلماء الأجلاء منذ فجر التاريخ الإسلامى يبحثون عن أوجه إعجازه ، محاولين الكشف عن خصائصه البيانية ، التى بوأته هذه القمة المعجزة ، ولذها تم فى كنف دراسة الإعجاز القرآنى تدوين مسائل علوم البلاغة ، وتطورها واكتمالها .

واثناء قراءتى ودراستى لكتب التفسير ومعايشتى لها وخاصة التى تهتم بالنواحى اللغوية والبلاغية والكشف عن أوجه إعجازه ، لفت نظرى وجذب انتباهى بعض الحروف فى القرآن الكريم التى جاءت محكمة الدلالة فى سياقها بحيث لا يغنى غيرها غناءها ، ولا يتم المعنى بدونها ، والحرف الواحد منها قد أغنى عن كلام كثير ، لما أفاده من أسرار ولطائف وإشارات جليلة .

فعقدت العزم على جمع ما استطيع جمعه وما هدانى الله إليه من الآيات التى تتضمن حرفا من هذه الحروف التى أفاد استعماله فى هذا المكان لطائف وأسرار بليغة لا تتأتى باستخدام غيره .

وقد عكفت على بحثها وتحليلها ودراستها دراسة بيانية فى هذا البحث المتواضع .

وقد جاء هذا البحث مشتملا على مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة ..

أما المقدمة فقد تضمنت منهج البحث وأهميته ، ودوافع إختيارى لدراسة هذا الموضوع .

التمهيد: وتناولت فيه بإيجاز أهم وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم

المبحث الأول: من الأسرار البلاغية لاستعمالات الحروف الجارة.

المبحث الثانى: من الأسرار البلاغية لاستعمالات الحروف العاطفة.

المبحث الثالث: من الأسرار البلاغية لاستعمالات (إن و إذا ولو) من أدوات الربط .

الخاتمة: وتضمنت أهم نتائج البحث.

وقد راعيت فى اختيار الآيات التى تضمنتها هذه المباحث ، واثناء بحثها ودراستها الأمور الآتية :

١) ترتيب الآيات فى كل مبحث وفق مجيئها فى القرآن الكريم ، اللهم إلا فيما اقتضته طبيعة البحث.

٢) اختيار الآيات التى تشتمل على حرف له أثر بلاغى فى موضعه ومعجز فى استخدامه، لا يغنى غيره عنه ، ولا يتم المعنى بدونه ، ويستشف منه الكثير من المزايا والأسرار البلاغية .

٣) العناية بشرح وبيان معنى الآية الكريمة ، ومناسبتها لما قبلها من الآيات .

٤) اتباع منهج الحوار والمناقشة فى دراسة الآيات ، ومحاولة الكشف عما اشتملت عليه من صور بلاغية ، وما لها من أثر بلاغى ، وكشف النقاب عن الأسرار واللطائف المستفادة من مجىء الحرف فى المكان الذى ورد فيه ، وإيثاره على غيره من الحروف التى يمكن أن تحل محله .

والله أسأل أن يرزقنا التوفيق والسداد فى القول والعمل ، وأن يجنبنا الخطأ والزلل فهو حسبنا ونعم الوكيل .

دكتور
رجب محمد سالم رفاعى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
جامعة الأزهر

تمهيد

أولا : تحدى القرآن الكريم لأرباب الفصاحة والبيان :

القرآن الكريم كلام رب العالمين ، الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب سيدنا محمد الرسول الأمين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو فى قمة البلاغة والبيان ، ولم ينكرها إلا جاحد لضوء الشمس فى وسط النهار .

وهو المعجزة لرسول الله ﷺ الذى تحدى به المعارضين ، وكرر عليهم ذلك التحدى فى صور شتى ، متهكما بهم ، متنزلا معهم إلى الأخف فالأخف ، فدعاهم أول مرة أن يأتوا بمثله . وذلك فى قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾(١). فعجزوا.

والمتأمل فى التعبير القرآنى يرى أنه لم يكتف بأن يطلب منهم الإتيان بمثله ، بل أعقب ذلك بما يثير حميتهم ، ويدفعهم دفعا للإسراع إلى الاستجابة ، وقبول التحدى إن كان لهم طاقة به ، وقدرة عليه ، وذلك بقوله تعالى ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ولكن أنى لهم ذلك ؟ .

فلما عجزوا وانقطعت بهم السبل ، تنزل معهم إلى ما هو أهون من ذلك ، فدعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ

---

(١) سورة الطور : الآية (٣٣ ، ٣٤) .

اللَّهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١).

والنص الكريم يفيد بجانب التنزل فى التحدى إلى عشر سور فقط ـ أموراً أخرى على غاية من الأهمية . فقد قبل منهم أن يأتوا بعشر سور مفتريات ، لا يلتزمون فيها بالحكمة ولا الحقيقة كما يلتزم القرآن الكريم ، بل يكفى أن تكون معارضتهم قاصرة على النظم والأسلوب ، بصرف النظر عما يتضمنه الكلام من معان ، سواء أكانت صادقة أم كاذبة ، وهم أهل اللغة والبيان ، ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسع عشر سور .

ثم أباح لهم بجانب ذلك أن يستعينوا بمن شاءوا ، ثم أثار هممهم بقوله : ﴿ إن كَانُوا صَادِقِين ﴾ ثم أشار إلى أنهم إن لم يستطيعوا ذلك على مافيه من التسامح فليس لهذا من معنى إلا أن القرآن ليس من قول بشر ، وإنما أنزل بعلم الله ، وأن ذلك يوجب الإيمان به (٢).

فلما عجزوا هذه المرة أيضا تنزل معهم فى التحدى إلى أبعد مدى يمكن أن يصل إليه التنزل ، فأكتفى منهم بأن يأتوا بسورة واحدة منه دون تحديد للسورة طالت أم قصرت . وذلك فى قوله تعالى فى سورة البقرة ، وهى آخر آيات التحدى ، إذ نزلت فى المدينة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ

---

(١) سورة هود : الآية (١٣ـ ١٤) .

(٢) ينظر الإعجاز القرآنى : وجهه وأسراره للدكتور عبد الغنى بركة ص ٩، ١٠ ، ١١ مطبعة وهبة

وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وإذا تأملنا فى نظم هذه الآية الكريمة وجدنا عجبا ، فقد بالغت فى إثارتهم واستفزازهم حتى تثبت وتأكد أن قدرتهم على المعرضة منتفية تمامًا ، فلن تقع ولن تكون ، فقال لهم ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ أى : أن هذا منكم فوق القدرة ، وفوق الحيلة وفوق الاستعانة ، ثم أنذرهم بجعلهم وقوداً لجهنم ثم قرنهم بالأحجار ، ثم سماهم كافرين ، وليس بعد ذلك مدى يذهب إليه فى الإثارة والاستفزاز ، فلو كان بهم عرق ينبض لدفعوا عن أنفسهم هذا الهوان ولكن أنى لهم ذلك ...

إذن فالقرآن الكريم قد أعجز العرب عجزاً لم يستطيعوا له دفعا ، ولم يجدوا عنه مهربا ، وعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم ، وسكوتهم عن المعارضة مع توفر داوعيهم عليها .

ثانيا : أهم وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم :

قبل أن أتكلم عن أهم وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ، أرى أن نقف على ماهية المعجزة حتى يسهل علينا تصور وجوه إعجازه .

قال السيوطى : المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى ، سالم عن المعارضة وهى : إما حسية ، وإما عقلية ، وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ؛ ليراها

(١) سورة البقرة الآية (٢٣ ، ٢٤) .

ذوو البصائر ، كما قال ﷺ : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ؛ وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » (١).

قيل : إن معنى الحديث أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، وخرقه العادة فى أسلوبه وبلاغته ، وإخباره بالمغيبات ، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شىء مما أخبر به أنه سيكون ؛ يدلّ على صحة دعواه .

وقيل : المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار ، كناقة صالح ، وعصا موسى ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ؛ لأن الذى يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده ، والذى يشاهد بعين العقل باقٍ ، يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً (٢).

ولا حرج من إرادة القولين . فى معنى الحديث ، فإن محصلهما لا ينافى بعضه بعضا .

أما عن أهم وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم : فقد تناضلت له سهام الأفهام، وأفرده بالتصنيف كثير من العلماء؛ منهم الخطابى، والرمانى والزملكانى، والإمام الرازى، والقاضى أبو بكر الباقلانى (٣).وغيرهم ممن

(١) ينظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٤ ص ٣ دار التراث بتصرف .
(٢) ينظر المرجع السابق جـ ٤ ص ٤ .
(٣) ينظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، وإعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى .

جندوا أنفسهم للدفاع عن كلام رب العالمين .

ولعل الدافع لعناية هؤلاء وغيرهم إنما هو كون القرآن الكريم المعجزة الكبرى للنبى ﷺ ، وكونه المعجزة الباقية ، وهو أيضا المعجزة التى تحدى بها الرسول معانديه تحديا صريحا . والرد على الأباطيل التى يحاول أصحابها التشكيك فى إعجازه وبلاغته وتبرئته مما حاولوا إلصاقه به من مفتريات ، وإثبات أن القرآن الكريم ليس من صنع بشر لما يلزم ذلك من الإيمان بكل ما تضمنه باعتباره الحق الخالص من عند الله .

ووجوه الإعجاز فى القرآن لا يحصرها المتأمل ، وقد حاول العلماء الإلمام بأهمها والكشف عنها .

قال صاحب التحرير والتنوير مشيراً إلى أهم هذه الوجوه : وإذ كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل ، كان علينا أن نضبط معاقدها التى هى ملاكها ، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات :

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربى البليغ من حصول كيفيات فى نظمه مفيدة معانى دقيقة ، ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة ، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لايدانيها شىء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف فى نظم الكلام مما لم يكن معهوداً فى أساليب العرب ، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

الجهة الثالثة: ما أودِع فيه من المعانى الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر فى عصر نزول القرآن

وفى عصورٍ بعده متفاوته .

وقد عد كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما يعد **جهة رابعة** هي ما انطوى عليه من الأخبار عن المغيبات مما دل على أنه منزل من علاّم الغيوب ، وقد يدخل فى هذه الجهة ما عده عياض فى الشفاء وجها رابعا من وجوه إعجاز القرآن ، وهو ما أنبأبه من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب ، فهذا معجز للعرب الأميين خاصة ، وليس معجز الأهل الكتاب ، وخاصٌ ثبوت إعجازه بأهل الإنصاف من الناظرين فى نشأة الرسول ﷺ وأحواله ، وليس معجزا للمكابرين فقد قالوا إنما يعلمه بشر .

فإعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجه إلى العرب ، إذ هو معجز لفصائحهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة ، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أنّ عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعى عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم . ثم هو بذلك دليل على صدق المنزَّل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغا لا يُستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار ، ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ . فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلى ، وإعجازه لغيرهم دليل إجمالى .

ثم قد يشارك خاصة العرب فى إدراك إعجازه كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية فى مختلف العصور

والقرآن معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة إعجازا مستمراً على مر العصور وهذا من جملة ما شمله قولِ أئمة الدينِ : إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين ، لأنه قد يدرِك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعيةَ والحِكْمية والعلمية والأخلاقية ،

وهو دليل تفصيلى لأهل تلك المعانى وإجمالى لمن تبلغه شهادتهم بذلك .

وهو من الجهة الرابعة عند الذين اعتبروها زائدة على الجهات الثلاث معجز لأهل عصر نزوله إعجازا تفصيليا ، ومعجز لمن يجىء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن ، وتعيُّنِ صرف الآيات المشتملة على هذا الإخبار إلى ما أريد منها (١).

وإذا كان إهتمام معظم العلماء الذى شغلوا بالبحث فى وجوه إعجاز القرآن الكريم توجه إلى الإعجاز البلاغى ، فإن هذه الجهة بحر متلاطم من الأسرار والعلوم ، ولا يستطيع باحث أن يجليه تجلية كاملة مهما أولى من صفاء الفطرة ، ونفاذ البصيرة ، وغاية ما يحققه أن يضيف لبنة إلى صرح شامخ .

ذلك أن إدراك أسرار الجمال فى التعبير ، ليس الشأن فيه كالعلوم المضبوطة بقواعد لا تتخلف ، بل إن أمر الجمال فى الكلام أدق وأخفى ، حيث لا ميزان له إلا القرائح والأذواق ، ويحتاج إدراكه إلى استعداد فطرى، وطبيعة خاصة ذات حس مرهف ، وذكاء لماح (٢).

هذا ويشير الإمام عبد القاهر إلى ذلك قائلا : « اعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ويعرى منها أخرى ، وحتى يكون إذا عجبته عُجِّبَ ، وإذا نبهته لموضع مزية انتبه ، فأما من كانت الحالان والوجهان

---

(١) ينظر التحرير والتنوير حـ ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٢) ينظر الإعجاز القرآنى وجوهه وأسراره ص ٣٩ .

عنده آبداً على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة ، وإلا إعراباً ظاهراً ، فما أقل ما يُجدى الكلام معه ، [١].

ولهذا نرى العلماء فى تتابعهم على دراسة هذه القضية ، قد تعددت بهم السبل التى سلكوها إلى غايتهم ، فنظر كل منهم إلى النص القرآنى من زاوية ، رأى من خلالها بعض دلائل الإعجاز ، واهتدى إلى شيء من أسراره ، قلّ أو كثر ، حسب عطاء الله له ، وتبعا لموهبته وصفاء فطرته ، وعمق نظرته ، كلهم يعترف بأن ما خفى عليهم منه أكثر مما أدركوه ، وأن الذى وصفوه مما فطنوا إليه ، أقل مما ضاقت بها عباراتهم ولم تف به إشاراتهم [٢].

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز تحقيق وشرح الدكتور عبد المنعم خفاجى ص ٢٢٥ .

(٢) ينظر الإعجاز القرآنى وجوهه وأسراره نقلا عن النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠١ .

المبحث الأول
من الأسرار البلاغية لاستعمالات الحروف الجارة

حروف الجر هى الحروف التى تدخل على الأسماء وتعمل فيها الجر ، وقد ذكر ابن مالك أن عددها عشرون حرفا ، فقال فى ألفيته (١).

هاك حروف الجر ، وهى : مـــن ، إلى ... حتى : خلا ، حاشا ، عدا، فى ، عن ، على

مذ ، منذ ، رُبَّ ، اللام ، كى ، واو ، وتا ... والكاف ، والبـاء ، ولعـل ومتى

وقد نقل السيوطى فى تسميتها كلاما عن النحويين قال فيه : هذا مبحث حروف الجر ، وسميت به ، قال ابن الحاجب : لأنها تجر معنى الفعل إلى الاسم ، وقال الرضى : بل لأنها تعمل إعراب الجر كما قيل : حروف النصب ، وحروف الجزم ، وكذا قال الرضى : وتسميها الكوفيون حروف الإضافة لأنها تضيف الفعل إلى الاسم . أى توصله إليه وتربطه به، وحروف الصفات لأنها تحدث صفة فى الاسم ؛ فقولك جلست فى الدار دلت فى على أن الدار وعاء للجلوس ، وقيل : لأنها تقع صفات لما قبلها من النكرات (٢).

ولكل حرف من حروف الجر معنى يدل عليه وربما كان للحرف أكثر من معنى حسب استعماله وما يفصح عنه سياق الكلام ومقتضيات

---

(١) ينظر شرح ابن عقيل حـ ٣ ص ٣ . شرح وتعليق محى الدين عبد الحميد . دار التراث .
(٢) ينظر همع الهوامع . شرح جمع الجوامع للسيوطى حـ ٢ ص ١٩ .

الأحوال [١].

وفى هذا المبحث سأتناول بعض الآيات القرآنية التى ورد فيها أحد حروف الجر وكان لاستعماله فيها دلالات أدبية ..، وأسرار بلاغية تنبىء عن دقة اختيارها ، وبراعة استعمالها ، وحسن موقعها .

(١) راجع همع الهوامع . شرح جمع الجوامع للسيوطى جـ ٢ ص ١٩ .

أولا : حرف الباء

وهى مكسورة الحركة ، وإنما كسرت لتكون على حركة معمولها ، وحركة معمولها الكسر ، ولا يعترض على هذا بالكاف ؛ لأن الكاف قد تكون اسما ، وهم اعتزموا على أن يفرقوا بين حركة ما لا يكون إلا حرفًا نحو الباء واللام ، وحركة ما قد تكون اسما نحو الكاف [1].

وللباء عدة معان منها : الإلصاق كقولك أمسكت بزيد ، إذا قبضت على شيء من جسمه ، أو على ما يحبسه من يد أوثوب وقولك : مررت بزيد. أى ألصقت مرورى بمكان يقرب من زيد .

ومنها التعدية : وتسمى باء النقل أيضا وهى المعاقبة للهمزة فى تصيير الفاعل مفعولا ، وأكثر ما تعدى الفعل القاصر تقول : فى ذهب زيد، ذهبت بزيد وأذهبته . ومنه قوله تعالى ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [2].

ومنها الإستعانة وهى الداخلة على آلة الفعل نحو : كتبت بالقلم ، ونجرت بالقدوم . قيل ومنه باء البسملة لأن الفعل لا يتأتى على الوجه الأكمل إلا بها [3]. ومنها السببية لقوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ [4]. وقوله تعالى ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ [5].

ومنها المصاحبة : نحو قوله تعالى ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا ﴾ [6].

أى معه، وقوله تعالى ﴿ وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ ﴾ [7].... إلى غير

(١) ينظر معانى الحروف للرمانى ص ٣٦.
(٢) سورة البقرة الآية (١٧) .
(٣) ينظر المغنى اللبيب جـ ١ ص ٩٦ .
(٤) سورة البقرة الآية (٥٤) .
(٥) سورة العنكبوت الآية (٤٠).
(٦) سورة هود الآية (٤٨).
(٧) سورة المائدة الآية (٦١) .

ذلك من المعانى التى أشارت إليها كتب اللغة (١).

وهذه بعض الآيات التى وردت فيها « الباء » الجارة وكان لها أسرار ولطائف بلاغية وأدبية .

١- قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ ويَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢).

وقوله تعالى بعد هذه الآية بقليل : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣).

القارىء لهاتين الآيتين يلفت نظره، ويشد انتباهه قوله تعالى: ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ فى الآية الأولى وقوله تعالى : ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ فى الآية الثانية . ويتساءل فيقول لما خصت الآية الأولى بالتعريف والباء فى قوله تعالى « بالمعروف » والثانية بالتنكير ولفظة من فى قوله تعالى « من معروف ».

والجواب على هذا السؤال يجرنا إلى بيان معنى الآيتين :

---

(١) ينظر المغنى اللبيب جـ ١ ص ٩٨ وما بعدها . (٢) سورة البقرة الآية (٢٣٤) .
(٣) سورة البقرة الآية (٢٤٠) .

أمـا الآية الأولى فـمـعناها ملخـصـا : على النسـاء اللواتـى يموت أزواجهن أن يمكثن فى العدة أربعة أشهر وعشرة أيام حداداً على أزواجـهن وهذا الحكم لغيـر الحامل أمـا الحـامل فـعدتهـا وضـع الحـمل لقـوله تعـالى ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (١)فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيهـا الأوليـاء من قـرابة الميت فى الإذن لـهن بالزواج وفـعل مـا أباحـه الله لـهن الشـرع من الزينة والتـعـرض للخُطّاب ، والله عليم بجـمـيع أعمالكم فيجازيكم عليها (٢) .

ومـعنى الآية الثـانيـة : والذين يموتون من رجـالكم ويتـركـون زوجاتهم عليهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملاً ، ينفق عليـهن من تركتـه ، ولا يخرجن من مـساكنهن ـ وكـان ذلك فى أول الإسـلام ثم نسـخت المدة إلى أربعـة أشهـر وعشـرة أيام ، ونسـخت النفقة بالإرث الذى هو الربع والثمن ـ فإن خرجن مـختارات راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت فـى تركهن أن يفعلن مـا لا ينكره الشرح كالتـزين والتطيب والتـعـرض للخطاب والله سبـحـانـه غـالـب فى ملكـه حكيـم فى صنعه (٣) .

من هذا البـيـان يتـضح لنا الجـواب : وهو أن مـا فـى الآية الأولى خص بما أباحه الله لهن من التزوج بعد إنقضاء العدة : والآية الثانية المراد به فلا إثم عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من تزوج أو قعود أو تزين مما لا

(١) سورة الطلاق الآية (٤) .

(٢) ينظر الكشاف للزمخشرى حـ ١ ص ١٤٣ . وصفوة التفاسير للصابونى القسم الأول صـ ١٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٠ .

ينكره الشرع .

يقول الإسكافي [١]: إن الأول تعلق بقوله ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ أى لا جناح عليكم فى أن يفعلن فى أنفسهن بأمر الله وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة ، فالمعروف ههنا أمر الله المشهور وهو فعله وشرعه الذى شرعه وبعث عليه عباده . والثانى المراد به : فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من جملة الأفعال التى لهنّ أن يفعلن من تزوج أو قعود ؛ فالمعروف ههنا فعل من أفعالهن يعرف فى الدين جوازه ، وهو بعض ما لهن أن يفعلنه ، ولهذا المعنى خص بلفظة من ونكر ، فجاء المعروف فى الأول معرف اللفظ لما أشرت إليه ، وهو أن يفعلن فى أنفسهن بالوجه المعروف المشهورالذى أباح الشرع من ذلك ؛ وهو الوجه الذى دل الله عليه وأبانه فعرف ؛ إذ كان معرفة مقصوداً نحوه ، وخص بالباء وهى للإلصاق . والثانى : وجها من الوجوه التى لهن أن يأتينه فأخرج مخرج النكرة لذلك[٢].

فتأمل ما أَوْحَى به حرف الباء والتعريف من لطائف وتنبيهات فى الآية الأولى ، وما أفادته من والتنكير فى الآية الثانية فسبحان مَنْ هذا

(١) هو الشيخ الإمام أبى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي . كان خطيب القلعة الفخرية الشهيرة . لذا عرف بالخطيب . وكان يمتهن هذه الحرفة البسيطة في خصف النعال واصلاحها . ولذا عرف بالإسكافى توفى سنة ٤٢١هـ ينظر معجم الأدباء حـ ١٨ ص ٢١٤هـ ينظر معجم الأدباء حـ ١٨ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافى ص (٤٦ ، ٤٧) .

كلامه .

٢ـ قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

قال أبو السعود : نزلت فى فرقة من المنافقين ، قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام ما لا ينبغى ، فقال بعضهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا ، فقال : الجلاس بن سويد : نقول : ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ، ونحلف فيصدقنا بما نقول ، إنما محمد أذن سامعه ، وذلك قوله عز وجل « ويقولون هو أذن » أى يسمع كل ما قيل من غير أن يتدبر فيه « ويميز بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له ، وبين ما لا يليق به وإنما قالوه لأنه عليه الصلاة والسلام كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ، ويصفح عنهم حلما وكرما ، فحملوه على سلامة القلب وقالوا ما قالوا، وقوله تعالى « قل أذن خير لكم من قبيل رجل صدق فى الدلالة على المبالغة فى الجودة والصلاح ، كأنه قيل : نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ، ويجوز أن يكون المراد أذنا فى الخير والحق ، وفيما ينبغى سماعه وقبوله لا فى غير ذلك .. وقوله عز وجل « يؤمن بالله » تفسر لكونه أذن خير لهم ، أى : يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة الموجبة له ، وكون ذلك خيرا للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لا يخفى للذين آمنوا منكم « أى وهو رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، حيث يقبله منهم ، لكن لا تصديقا لهم

(١) سورة التوبة الآية (٦١) .

فى ذلك ، بل رفقا بهم وترحما عليهم ، ولا يكشف أسرارهم ، ولا يهتك أستارهم ، والذين يؤذون رسول الله ، بما نقل عنهم من قوله : هو أذن ونحوه ، لهم عذاب أليم ، بما يجترئون عليه من أذيته عليه الصلاة والسلام[1].

والذى يستوقفنا فى الآية الكريمة هو قوله تعالى ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، حيث عدى الفعل يؤمن بالباء فى جانب الله تعالى ، وعدى باللام فى جانب المؤمنين . ولعل فى ذلك ما يفيد أن معنى الإيمان هنا ليس واحدا ، بل الإيمان فى جانب الله هو الإيمان المشهور المتصل بالعقيدة والذى هو ضد الكفر ، والإيمان فى جانب المؤمنين بمعنى التسليم والسماع للمؤمنين وتصديقهم فيما يقولونه .

قال الزمخشرى فى بيان علة التعبير بالباء فى جانب الله واللام فى جانب المؤمنين ، فإن قلت : لم عدى فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى ، إلى المؤمنين باللام ؟ قلت : لأنه قصد التصديق بالله الذى هو نقيض الكفر به ، فعدى بالباء ، وقصد السماع من المؤمنين ، وأن يسلم لهم ما يقولونه ، ويصدقه لكونهم صادقين عنده فعدى باللام ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [2] ما أنبأه عن الباء ، ونحوه [3] ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ [4]، ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾[5] ، ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾[6].

والذى يستفاد مما لاحظه الزمخشرى : أن فعل الإيمان يعدى بالباء فى جانب الله ويعدى باللام لغير الله تعالى .

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود حـ ٢ ص ٢٧٨ .
(٢) سورة يوسف الآية (١٧) .
(٣) ينظر الكشاف حـ ٢ ص ١٦٠ .
(٤) سورة يونس الآية (٨٣) .
(٥) سورة الشعراء الآية (١١١) .
(٦) سورة طه الآية (٧١) .

وفى الآية الكريمة نكات بلاغية وأسرار بيانيه أخرى . منها التعبير بالنبى إظهار فى مقام الإضمار ، لأن قبله « ومنهم من يلمزك فى الصدقات » فكان مقتضى الظاهر أن يقال : « ومنهم الذين يؤذونك » فعدل عن الإضمار إلى إظهار وصف النبى للإيذان بشناعة قولهم ، ولزيادة تنزيه النبى بالثناء عليه بوصف النبوءة بحيث لا تحكى مقالتهم فيه إلا بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه والتعريض بجرمهم فيما قالوه .

ومنها : أن مضمون جملة « ويقولون هو أذن » من قبيل عطف الخاص على العام ، لأنّ قولهم ذلك هو من الأذى .

ومنها أن قوله « هو أذن » إخبار عنه بأنه آلة سمع ، وهو من صيغ التشبيه البليغ أى كالأذن فى تلقى المسموعات لا يردُّ منها شيئا ، وقد أفاد تصديقه بكل ما يسمع من دون تمييز بين المقبول والمردود .

ومنها أن جملة : « قل أذن خير لكم » جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا ، على طريقة المقاولة والمحاورة لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظة لهم ، وكمدا لمقاصدهم ، وهو من الأسلوب الحكيم الذى يحمل فيه المخاطب كلامَ المتكلم على غير ما يريده ، تنبيها له على أنه الأولى بأن يراد ، وهذا من غيرة الله على رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولطائف القرآن .

وقوله « أذن خير » فيه أنه ﷺ يسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم ويسمع معاذيركم ويقبلها منكم ، وهذا الكلام إبطال لأن يكون « أذن » بالمعنى الذى أرادوه من الذم ، فإن الوصف بالأذن لا يختص بمن يقبل

الكلام المفضى إلى شريل هو أعم ، فلذلك صح تخصيصه هنا بما فيه خير وهذا إعمال فى غير المراد به ، وهو ضرب من المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد فى أحد الجانبين[١] .

وجملة « يؤمن بالله » تمهيد لقوله بعده « ويؤمن للمؤمنين » إذ هو المقصود من الجواب لتمحضه للخير وبعده عن الشر بأنه يؤمن بالله ، فهو يعامل الناس بما أمر الله به من المعاملة بالعفو ، والصفح ، والأمر بالمعروف ، والإعراض عن الجاهلين ، وبأن لا يؤاخذ أحدا إلا ببينة ، فالناس فى أمن من جانبه فيما يبلُغ إليه ؛ لأنه لا يعامل إلا بالوجه المعروف ، فكونه يؤمن بالله وازع له عن المؤاخذة بالظنة والتهمة .

وفى قوله « ويؤمن للمؤمنين » ثناء عليه بأنه يعامل الناس بشهادة المؤمنين ويتضمن الأمر به .

وفى ذلك النبى بوصف « رسول الله » فى قوله تعالى « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » إيماء إلى استحقاق مؤذيه العذاب الأليم . وفى الموصول إيماء إلى أن علة العذاب هى الإيذاء [٢] .

٣ـ قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [٣] .

قال أبو السعود : فى معنى هذه الآية التحدث بنعمة الله يكون بشكرها وإشاعتها وإظهار آثارها وأحكامها ، أريد بها ما أفاضه الله تعالى عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من فنون النعم التى من جملتها النعم المعدودة

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٦ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ بتصرف .
(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ ٦ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ بتصرف .
(٣) سورة الضحى الآية (١١) .

الموجودة منها والموعودة والمعنى أنك كنت يتيما وضالا وعائلا ، فآواك الله تعالى ، وهداك ، وأغناك ، فمهما يكن من شيء فلا تنس حقوق نعمة الله تعالى عليك في هذه الثلاث ، واقتد بالله تعالى ، وأحسن كما أحسن الله إليك فتعطف على اليتيم فآوه ، وترحم على السائل ، وتفقده بمعروفك ، ولا تزجره عن بابك ، وحدث بنعمة الله كلها ، وحيث كان معظمها نعمة النبوة ، فقد اندرج تحت الأمر هدايته عليه الصلاة والسلام للضلال ، وتعليمه للشرائع ، والأحكام حسبما هداه عز وجل وعلمه من الكتاب والحكمة (١).

وإذا تأملنا في الآية الكريمة نجد فعل الأمر « حدث » قد تعدى بحرف الجر « الباء » والمعهود لغويا تعديته بحرف الجر (عن) يقال تحدث فلان عما في نفسه ، أو حدث فلان ، لاحدث بفلان ، ولعل الحكمة في العدول ، أوفي هذا الإستعمال البليغ (والله أعلم) بمراده أن يشمل الأمر الرسول ﷺ وأمته ، وهو في جانب رسوله ﷺ كما بينه أبو السعود .

وفي جانب أمته هو أن المقصود بالتحدث بنعمة الله تعالى هو الأمر بإخراج الزكاة وسائر الصدقات من نعم الله المفاضة على الإنسان حتى تصبح النعمة المزكى عنها كأنها لسان ينطق نيابة عن صاحبها بما قام به من إحسان وسخاء وهذا ملموس في الواقع ، فالشخص الكريم السخي الذي يدأب على إخراج الزكاة والصدقات يتحدث الناس عنه ، وعن كرمه وجوده ، وإن لم يتحدث هو عن نفسه ، والمفروض ألا يتحدث هو عن نفسه ، كأن الفعل يتحدث هو عن نفسه ، كأن الفعل (حدّث) له معنيان

(١) ينظر تفسير أبي السعود حـ ٥ ص ٢٧٠ .

بحسب حرف الجر الذى يتعدى به ، فإن كان المراد الإخبار عن نعم الله تعالى المفاضة على عبده . قيل تحدث العبد عن نعم الله تعالى عليه ، أى : أخبر بلسانه عما أفاض الله عليه من نعم وآلاء ، وهذا غير المراد فى الآية التى معنا ، ولا فى تعاليم الإسلام وآدابه ، وبخاصة إذا كان فيه الرياء والسمعة والإفتخار والإستعلاء على الناس والتباهى بنعم الله عليه ، ولأن الحديث عن النعمة باللسان دون سخاء وإحسان يوغر صدور المحرومين .

أما الحديث بالنعمة . أى جعلها لسانا ناطقا بما قام به المغنى من تصدق على المستحقين فهو مقصد الآية الكريمة ، وهو من الفضائل التى حضّ عليها الدين الحنيف ، ومن ثم قالت الآية الكريمة ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

ولم تقل : وأما عن نعمة ربك فحدث ، فليس المراد الحديث والتعبير بالجود والإحسان ، دون أن يتكلم الإنسان .

وبعد ، فلعل الله سبحانه وتعالى يرزقنا دائما حُسْن التدبر لما فى آيات القرآن من البلاغة والإعجاز.

ثانيا: اللام الجارة

وهى التى تجر الإسم الداخلة عليه . وقد ذكر ابن هشام لها اثنين وعشرين معنى منها : الإستحقاق وهى الواقعة بين معنى وذات نحو : الحمد لله ، والعزة لله ، والملك لله ، والأمر لله ، ويل للمطففين ، ولهم فى الدنيا خزى ، ومنه : للكافرين النار . أى : عذابها .

ومنها الاختصاص نحو : الجنة للمؤمنين ، وهذا الحصير للمسجد ، والمنبر للخطيب ، والسرج للدابة ، والقميص للعبد ، وقولك ، هذا الشعر لحبيب ، ومنها : الملك : نحو له ما فى السموات وما فى الأرض[1] .

إلى غير ذلك من المعانى التى أوردها ابن هشام .

وهنا سأتناول بالدراسة والبحث بعض الآيات التى ورد فيها هذا الحرف والذى يستشف منه معنى أدبياً خلابا ، وأسرار بلاغية تدل على إعجاز كلام رب العالمين .

١- قال تعالى : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢).

قال صاحب التحرير والتنوير عن علاقة هذه الآية بما قبلها : أنها

---

(١) ينظر : مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى الجزء الأول . دار إحياء الكتب العربية . الحلبى ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) سورة يونس الآية (٢) .

مستأنفه استئنافا بيانيا لأن آية ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ بما فيها من إيهام الداعى إلى التوقف على آيات الكتاب الحكيم تثير سؤالا عن ذلك الداعى ، فجاءت هذه الآية تبين أن وجه ذلك هو استبعاد الناس الوحى إلى رجل من الناس استبعاد إحالة ، وجاءت على هذا النظم الجامع بين بيان الداعى ، وبين إنكار السبب الذى دعا إليه ، وتجهيل المتسببين فيه ، ولك أن تجعله استئنافًا ابتدائيا ، لأنه مبدأ الغرض الذى جاءت له السورة ، وهو الاستدلال على صدق الرسول وإثبات البعث (١).

ومعنى قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ أى : أكان عجبا لأهل مكة إيحاؤنا إلى رجل منهم هو محمد عليه الصلاة والسلام ؟ والهمزة للإنكار . أى : لا عجب فى ذلك ؛ فهى عادة الله فى الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله . وقوله : ﴿ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ أى : أوحينا إليه بأن خوف الكفار عذاب النار. وقوله ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى وأن بشر المؤمنين بأن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال وقوله ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى ومع وضوح صدق رسول الله ﷺ وإعجاز القرآن ، قال المشركون : إن محمداً لساحر ظاهر السحر ، مبطل فيما يدعيه (٢).

قال البيضاوى : وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة ، معجزة إياهم عن المعارضة ، وهو اعتراف من حيث

---

(١) ينظر التحرير والتنوير حـ ٦ ص ٨٣.

(٢) ينظر صفوة التفاسير للصابونى القسم ٥ ص ٥٧ ، ٥٨ بتصرف .

لا يشعرون بأن ما جاء به خارج عن طوق البشر[١].

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : لما قيل ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ ولم يقل : أكان عند الناس وما فائدة التعبير باللام دون عند ؟ .

يقول الزمخشرى : فإن قلت : فما معنى اللام فى قوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ ؟ وما الفرق بينه وبين قولك : أكان عند الناس عجبا ؟ قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم ، وليس فى عند الناس هذا المعنى

والذى تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر ، وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم ، فقد كانوا يقولون العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب ، وأن يذكر لهم البعث ، وينذر بالنار ، ويبشر بالجنة ، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب ؛ لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشراً مثلهم ، وقال الله تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ [٢] وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضا لأن الله تعالى إنما يختار من استحق الإختيار لجمعه أسباب الإستقلال بما اختير له من النبوّة والغنى والتقدم فى الدنيا ليس من تلك الأسباب فى شىء ، ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ﴾ والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى ، فكيف يكون عجبا ؛ إنما العجب العجيب ، والمنكر فى

(١) ينظر تفسير البيضاوى ص ٢٣٥ .

(٢) سورة الإسراء آية (٩٥) .

العقول تعطيل الجزاء [١].

ويقول أبو السعود : وإنما قيل : للناس لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم ، وفيه من زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى[٢].

وقال صاحب التحرير والتنوير : قوله ﴿ لِلنَّاسِ﴾ متعلق (بكان) لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجب فيهم ، لأن أصل اللام أن تفيد الملك ، ويستعار ذلك للتمكن ، أى : لتمكن الكون عجبا من نفوسهم [٣].

والذى يمكن استنتاجه من هذه النقول : هو أن فى التعبير باللام دون عند فى قوله تعالى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أفاد جعلهم الوحى إلى بشر وكون هذا البشر رجل منهم ، وكونه هذا الفقير اليتيم دون عظيم من عظمائهم وما جاء به من عند الله أعجوبة منصوبة علما لهم يتعجبون منها.

وفيه أيضا تصوير تعجبهم هذا بصورة الشىء الذى يمتلك ويحرص عليه مالكه وهذا يوحى بقوة تمكن العجب من نفوسهم .

والهمزة فى قوله ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ للإستفهام المستعمل فى الإنكار ، وفى إدخال الهمزة التى للإستفهام الإنكارى على﴿ كَانَ ﴾ دون أن يقال : أعجب الناس ، الدلالة على التعجب من تعجبهم المراد به إحالة الوحى إلى بشر . وفيه من الإنكار عليهم ما فيه .

٢ـ قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ

(١) ينظر الكشاف حـ ٢ ص ١٨٠ .
(٢) ينظر تفسير أبى السعود حـ ٢ ص ٣٠٦.
(٣) ينظر التحرير والتنوير حـ٦ ص ٨٢.

عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١).

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (٢).

الآية الأولى: تقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامى فى ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ، ولا طائفة ولا لفرد ، إنما هو الإسلام والإحسان ، لا الاسم والعنوان .

والآية الكريمة ترد على اليهود والنصارى قولهم الذى زعموه ، وإثبات لما تضمنه ، من نفى دخول غيرهم الجنة فى قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾

فقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة :

أى : ليس كما يقولون ، بل يدخلها من أسلم وجهه لله ، وإسلام الوجه لله ، هو تسليم الذات لأوامر الله تعالى ، أى شدة الإمتثال ؛ لأن أسلم بمعنى ألقى السلام ، وترك المقاومة ، قال تعالى ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ (٣).

وقوله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى : وهو مؤمن مصدق متبع لرسول الله ﷺ .

(١) سورة البقرة الآية (١١٢) .
(٢) سورة لقمان الآية (٢٢) .
(٣) سورة آل عمران الآية (٢٠) .

وقد فسر النبى ﷺ الإحسان بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

وقوله ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ أى فله أجره الذى وعد له على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة . وقوله ﴿ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى : والأمن الموفور لا يساوره خوف ، والسرور الفائض لا يمسه حزن [١] .

والآية الثانية : بيان لحال المسلم المستسلم لأمر الله تعالى بعد بيان حال المشرك والمجادل فى الله بغير علم ولا هدى .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى : ومن يقبل على طاعة الله وينقاد لأوامره ، ويخلص قصده وعبادته لله . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى : وهو مؤمن موحد ، قال القرطبى : لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع[٢] ، ونظير الآية ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [٣] فلابد من الإيمان والإحسان ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أى : تمسك بحبل لا انقطاع له ، وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ أى إلى الله وحده - لا إلى أحد سواه - مرجع ومصير الأمور كلها فيجازى العامل عليها أحسن الجزاء [٤] .

والذى يدعو إلى بحث ودراسة هو قوله تعالى ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود حـ ١ ص ١١٥ . وتفسير الألوسى حـ١ ص ١١٢ ، وفتح القدير للشوكانى حـ ١ ص ١٣٠ بتصرف .

(٢) ينظر تفسير القرطبى حـ ١٤ ص ٧٤ .

(٣) سورة طه الآية (١١٢) .

(٤) ينظر صفوة التفاسير القسم (١٢ ص ٣٠) .

وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ فى الآية الأولى ، وقوله تعالى ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ فى الآية الثانية حيث عدى الفعل فى الآية الأولى باللام ، وعدى فى الآية الثانية بإلى والفعل فى الآيتين واحد .

قال الزمخشرى : فإن قلت : ماله عدّى بإلى ، وقد عدّى باللام فى قوله : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ ؛ قلت : معناه مع اللام أنه جعل وجهه ، وهو ذاته ونفسه سالما لله ، أى : خالصا له ، ومعناه مع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه ، والمراد التوكل عليه ، والتفويض إليه [١] .

وقال فخر الدين الرازى : من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم ؛ لأن « إلى » للغاية و« اللام » للاختصاص ، يقول القائل أسلمت وجهى إليك، أى : توجهت نحوك ، وينبىء هذا عن عدم الوصول : لأن التوجه إلى الشىء قبل الوصول . وقوله تعالى ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران ٢٠] يفيد الاختصاص ، ولا ينبىء عن الغاية التى تدل على المسافة وقطعها للوصول.

وإذا علم هذا فنقول فى البقرة : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ فقال الله ردًا عليهم ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أى : أنتم مع أنكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل، وتشترون بآياته ثمنا قليلا تدخلون النار ، ومن كان بكليته لله لا يدخلها ، هذا كلام باطل

(١) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٢١٥ .

فأورد عليهم من أسلم لله.

ولا شك أن النقض بالصورة التى هى ألزم أولى ، فأورد عليهم المخلص الذى ليس له أمر إلا الله ، وقال : أنتم تدخلون الجنة ، وهذا لا يدخلها ، ثم بين كذبهم وقال بلى وبين أن له فوق الجنة درجة وهى العندية بقوله تعالى ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ .

وأما ههنا - أى قوله ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أراد وعد المحسن بالثواب ، والوصول إلى الدرجة العالية ، فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد[1] .

فتعدية الفعل ﴿ يُسْلِمْ ﴾ بحرف ﴿ إِلَى ﴾دون اللام عند الزمخشرى مجاز فى الفعل ، بتشبيه نفس الإنسان بالمتاع الذى يدفعه صاحبه إلى آخر ويكله إليه ، وحقيقته أن يعدى باللام .

ثم إن تعدية الفعل ﴿ يُسْلِمْ ﴾ باللام فى سورة البقرة عقب مزاعم اليهود والنصارى جاء مناسبا فى موضعه ، بليغا فى الرد على ما يدعيه هؤلاء وكأن الله يقول لهم : كذبتم فى دعواكم فإن من يدخل جنتى ويستحق دار كرامتى ، ويحل عليه رضوانى هو من كان بكليته لله . أى بكل مشاعره وحواسه وطاقته لله تعالى . وأخلص نفسه له تعالى .

وعليه فإن تعدية الفعل « يسلم » باللام أبلغ فى الإستلام لله من تعديته بإلى لأن اللام تفيد الملكية والإختصاص ، وإلى تفيد الغاية . وكل جاء مناسبا فى موضعه .

(١) ينظر مفاتيح الغيب حـ ١٢ ص ٥١٧ ، ٥١٨ .

ثالثا: حرف الجار على

ذكر ابن هشام لها عدة معان منها : الإستعلاء إما على المجرور ، وهو الغالب نحو قوله تعالى ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (١)، وإما على ما يقرب منه نحو قوله تعالى ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ (٢)......وقد يكون الإستعلاء معنويا نحو : قوله تعالى ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ (٣) ونحو قوله تعالى ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(٤).

ومنها المصاحبة كمع نحو : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ (٥) وقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ (٦).

ومنها المجاورة كعن كقول الشاعر :

إذا رضيتْ على بنو قشير لعمر الله أعجبنى رضاها

أى عنى ، ويحتمل أن رضى ضمن معنى عطف .

ومنها التعليل كاللام نحو قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ (٧) أى لهدايته إياكم.

ومنها الظرفية كفى نحو قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ (٨) وقوله تعالى ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ

(١) سورة المؤمنون آية (٢٢) .
(٢) سورة طه الآية (١٠) .
(٣) سورة الشعراء الآية (١٤) .
(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٣) .
(٥) سورة البقرة الآية (١٧٧) .
(٦) سورة الرعد الآية (٦) .
(٧) سورة البقرة الآية (١٨٥) .
(٨) سورة القصص الآية (١٥) .

سُلَيْمَانَ ﴾ [١] أى فى زمن ملكه ، ويحتمل أنّ « تتلوا » مضمن معنى تتقول فيكون بمنزلة قوله تعالى﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ [٢] إلى غير ذلك من المعانى [٣].

وهنا سأذكر بعض الآيات التى ورد فيها هذا الحرف وكان لذكره فيها أسرار ولطائف بلاغية أدت إلى إيثاره على غيره.

١ـ قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [٤].

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله المؤمنين أن يقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن الكريم ، وأن يقولوا آمنا بما أنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التى كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة سيدنا إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم ، وما آوتى موسى وعيسى من التوراة والإنجيل ، وما أوتى النبيون من ربهم . أى ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعا ، ونصدق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ، فلا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى ، ونحن منقادون لأمر الله خاضعون

---

(١) سورة البقرة الآية (١٠٢) . (٢) سورة الحاقة الآية (٤٤) .
(٣) ينظر المغنى اللبيب حـ ١ ص ١٢٦ بتصرف .
(٤) سورة البقرة الآية (١٣٦) .

لحكمه [١].

وهذه الآية تشبه فى معناها العام قول الله تعالى فى سورة آل عمران ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [٢].

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : لما قال فى الآية الأولى ﴿ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ وقال فى الآية الثانية ﴿ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ؟ ، وهل لاختيار إلى فى الآية الأولى فائدة يوجب اختصاصها بها ، وكذا لاختيار على فى الآية الثانية معنى يوجب اختصاصها بها ؟

والجواب المشير إلى الفرق بين الموضعين فى إلى وعلى : هو أن أول الآية التى اختصت بها إلىْ ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ وأول الآية التى اختصت بها على ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ وبيان ذلك أن (على موضوعة لكون الشىء فوق الشىء ومجيئه من علو ، فهو مختص من الجهات الست كلها بجهة واحدة [٣] (وإلى) لانتهاء الغاية [٤]. ويكون الانتهاء من الجهات الست كلها ؛ فإنْ توجه نحو الشىء من جهة يمينه أو شماله أو أمامه أو خلفه أو من فوقه أو من تحته فإنه إذا بلغه يقال فيه انتهى إليه ، فلا تختص

(١) ينظر صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى ص (٨٤ ، ٨٥) القسم الثانى دار القرآن الكريم بيروت وفى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ص ١١٨ المجلد الأول دار الشروق .
(٢) سورة آل عمران الآية (٨٤) .
(٣) ينظر معانى الحروف للرمانى ص ١٠٨ .
(٤) ينظر مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى ص ٧٠ الجزء الأول .

إلى بجهة واحدة كما تختص على ، فقوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّه ﴾ اختيرت فيها (إلى) لأنها مصدرة بخطاب المسلمين فوجب أن يختار له (إلى) ثم جعل ما عطف عليه على لفظه بحق الإتباع، وإن صح فيه معنى الإنتهاء ؛ فالمؤمنون لم ينزل الوحى فى الحقيقة عليهم من السماء وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم ؛ فلما كان (قولوا) خطاباً لغير الأنبياء ، وكان لأممهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على) ولما كانت فى سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبى ﷺ وهو قوله تعالى ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ كانت على أحقُّ بهـذا المكان لأن الوحى أنزل عليـه ، وفى لفظ (أنزل) دلالة على انفصال الشىء من فوق ، ثم انتهى من عندهم إليهم أسفل .

وإن يقرب إلى الشىء ما يشاكله فيما يستحقه من المعنى أولى ، وإن كان القرآن قد نطق بجميع ذلك فى الأنبياء وفى غيرهم لقوله تعالى ﴿ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ و ﴿ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾(٢) . وقال فى موضع آخر ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾(٣) . فالمنزل على الأنبياء منتـه إليـهم، فلذلك صحت (إلى) إلا أن على أصلها إذا قصد الايضاح بالمعنى أن تستعمل فيمن نزل الوحى عليه ، وشركة الأمة فى اللفظ مجاز لاحقيقة(وإلى) فى ذكر الإنزال المتعلق بأمم الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أشبه بحقيقة معناها من (على) فلذلك خصتا فى الموضعين باللفظين المختلفين، وجعل ما بعدهما يجرى مجراهما، كما يجب فى حكم الإتباع(٤).

(١) سورة آل عمران الآية (٣) . (٢) سورة آل عمران الآية (٧) .

(٣) سورة الزمر الآية (٢) .

(٤) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز للإسكافى ص ٢٩ ، ٣٠ بتصرف . الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م.

٢- قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شهداء على النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

هذه الآية الكريمة كما يقول الألوسى : اعتراض بين كلامين متصلين وقعا خطابا له ﷺ استطراداً لمدح المؤمنين بوجه آخر ، أو تأكيد لرد الإنكار بأن هذه الأمة ، وأهل هذه الملة شهداء عليكم يوم الجزاء وشهادتهم مقبولة عندكم ، فأنتم إذاً - أى يا أهل الكتاب - أحق باتباعهم والأقتداء بهم ، فلا وجه لإنكاركم عليهم - أى فى تحويل القبلة - وذلك إشارة إلى الجعل المدلول عليه - بجعلناكم - وجيء بما يدل على البعد تفخيما (٢).

ومعنى قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ .... الخ أى : كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولاً خياراً لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلغتهم ، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم . وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدق الرسول ، ممن يشكك فى الدين ، ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ، وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعبا إلا على الذين هداهم الله ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أى ما

---

(١) سورة البقرة الآية (١٤٣) .
(٢) ينظر روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ١٤٣ .

صح ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها، وذلك حين سألوه ﷺ عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزل ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ تعليل للحكم. أى إنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التى فعلوها [1].

والذى يحتاج إلى نظر وتأمل فى الآية قوله تعالى ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ حيث قال : ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ وشهادته بتزكيته لهم ، ويعلم بعد التهم ، لا عليهم ، فكان مقتضى السياق أن يقول : ويكون الرسول لهم شهيداً يقول صاحب الكشاف [2] .مفصحا عن علة التعدى « بعلى » دون « اللام » فإن قلت : فهلا قيل : لكم شهيداً ، وشهادته لهم لا عليهم ؛ قلت : لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [3]. وقوله : ﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [4].

كما أن فى التعبير « بعلى » مشاكلته[5] .لما قبله وهو لون لطيف من الألوان البديعية .

وفى نسق الآية الكريمة لطائف يدركها المتأمل : فقد أخرت صلة

(١) ينظر : صفوة التفاسير للصابونى القسم ١ ص ٨٧ ، ٨٨ بتصرف .
(٢) ينظر الكشاف : حـ ١ ص ٩٩.
(٣) سورة البروج آية (٩) .
(٤) سورة المائدة آية (١١٧).
(٥) المشاكلة : هى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديراً . ينظر الإيضاح جـ٤ ص ٢٢.

الشـهـادة أولا ﴿ لِّتَكُونُوا شُـهَـدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ وقـدمت آخـراً ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ وقد أفاد ذلك سراً بلاغيا عظيما وهو الإمتنان على أمته ﷺ فى الطرفين ، ففى الأول : ثبوت كونهم شهداء ، والثانى : كونهم مشهوداً لهم بالتزكية خصوصا من هذا الرسول العظيم ، ولو قدم شهيداً لا نتقل الغرض إلى الامتنان على النبى عليه الصلاة والسلام بأنه شهيد وسياق الخطاب لهم ، والإمتنان عليهم يأباه [١].

٣ـ قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢].

هذا الخطاب الذى ورد فى الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾ خطابٌ على وجه التحذير والوعيد . والمعنى : يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ، ويبدله بدين آخر ، ويرجع عن الإيمان إلى الكفر فسوف يأتى الله مكانهم بأناس مؤمنين يحبهم الله ، ويحبون الله ، رحماء متواضعين للمؤمنين ، أشداء متعززين على الكافرين . قال ابن كثير [٣].وهذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه متعززاً على عدوه، كقوله تعالى ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى

---

(١) ينظر الإنتصاف على الكشاف لابن المنير الإسكندرى المالكى حـ١ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) سورة المائدة : الآية (٥٤) .

(٣) هو الإمام الجليل الحافظ عماد الدين . أبو الفداء اسماعيل ابن كثير القرشى الدمشقى ـ تتلمذ على ابن القيم . صاحب المؤلفات العظيمة توفى سنة ٧٧٤ هـ.

الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1] .ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لين الجانب متواضعا لإخوانه المؤمنين ، متسربلاً بالعزة حيال الكافرين والمنافقين ، يجاهدون لإعلاء كلمة الله ، ولا يبالون بمن لامهم ، فهم صلاب فى دين الله ، لا يخافون فى ذات الله أحداً ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أى من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة ؛ فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى واسع الإفضال والإحسان عليم بمن يستحق ذلك [2].

وفى الآية إعلام بارتداد بعض المسلمين، فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه ، وقد ارتد عن الإسلام فرق كثير: منهم من ارتد فى عهد رسول الله ﷺ ، ومنهم فى عهد أبى بكر. قال صاحب الكشاف ، وهو: أى ما جاء فى الآية الكريمة من الكائنات التى أخبر عنها فى القرآن قبل كونها ، [3] .أى وجودها وحدوثها .

والجدير بالنظر والتأمل فى الآية الكريمة حرف الجر ، على ، فقد ذكر مرتين ، مرة بعد ، أذلة ، وأخرى بعد ، أعزة ، واستعماله مع ، أعزّة ، لا يدعو إلى استغراب أو تساؤل . لأن الفعل ، عزّ ، يتعدى بالحرف (على) يقال : عز عليه وعزيز عليه ، أما استخدامه - أى حرف الجر (على) مع الفعل (ذلّ) المشتق منه الجمع (أذلة) جمع ذليل - فيدعو إلى التساؤل والإستغراب ؛ لأن الفعل (ذلّ) يتعدى باللام لا بـ (على) يقال : ذلّ له، لا ذلّ عليه ، فلماذا عدلت الآية عن الإستعمال المعهود لغويا إلى استعمال

(١) سورة الفتح الاية (٢٩) . (٢) ينظر صفوة التفاسير للصابونى . القسم ٣ ص ٢٩ .
(٣) ينظر الكشاف حـ ١ . ص ٣٤٤.

آخر غير معهود ؟ فلعل الحكمة فى ذلك (والله أعلم بمراده) أنّ المراد أن يكون المؤمن مع أخيه المؤمن متواضعا تواضعا ليس فيه إسراف ، ولا خنوع ، وليس فيه ذلة ، بحيث يقترب هذا التواضع من العزة ، فهو أمر وسط بين العزة والذلة .

فالمؤمن مع أخيه المؤمن ليس متكبراً عليه ، ولا ذليلا له ، وقد أفاد هذا المعنى الوسطى حرف الجر (على) مع الجمع (أذلة) المشتق من الفعل (ذَلّ) فما أروع أن يقال : المؤمن ذليل على أخيه المؤمن ، لا ذليل له ، فليست الذلة إلا لله تعالى ، فما أبلغ الحرف فى مكانه الذى أفاد هذا المعنى النبيل واللطائف العظيمة ، وأغنى عن كلام طويل .

يقول صاحب الكشاف [1] .(فإن قلت) هلا قيل أذلة للمؤمنين أعز على الكافرين قلت : فيه وجهان - أى التعبير - بأذلة على المؤمنين - أحدهما : أن يُضمَّنَ الذل معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع . والثانى : أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم . ونحوه قوله عز وجل ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [2] .

٤- قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي

---

(١) ينظر الكشاف جـ ١ ص ٣٤٦ .
(٢) سورة الفتح الآية (٢٩) .

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (١).

المعنى العام للآيتين : قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أى : قال نوح بعد ما يئس من إيمانهم : رب انصرنى عليهم بإهلاكهم عامة بسبب تكذيبهم إياى فأوحينا إليه عند ذلك أن اصنع السفينة بمرأى منا وحفظنا « ووحينا » أى : بأمرنا وتعليمنا ، فإذا جاء أمرنا بإنزال العذاب ، وفار الماء فى التنور الذى يخبز فيه . روى أنه قيل لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء يفور من التنور فأركب أنت ومن معك فى السفينة ، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب ، وقيل كان تنور آدم عليه السلام ، وكان من حجارة ، فصار إلى نوح ، واختلف فى مكانه ؛ فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلو باب كندة ، وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد ، وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة ، وقيل بالهند ، وعن ابن عباس رضى الله عنه التنور وجه الأرض ، وعن قتادة أشرف موضع فى الأرض . أى : أعلاة، وعن على ﷺ : فارالتنور طلع الفجر ، وقيل : معناه أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر.

قال المفسرون : جعل الله ذلك علامة لنوح على هلاك قومه . وقوله تعالى : ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أى : فأدخل فى السفينة من كل صنف من الحيوان زوجين « ذكر وانثى » لئلا ينقطع نسل ذلك الحيوان . واحمل أهلك أيضا إلا من سبق عليه القول بالهلاك ممن لم يؤمن كزوجته وابنه ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أى :

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٢٦ ، ٢٧.

ولا تسألني الشفاعة للظالمين عند مشاهدة هلاكهم ، فقد قضيت أنهم مغرقون محكوم عليهم بالغرق (١).

والذى يحتاج إلى تأمل هو قوله تعالى : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ حيث عدى الفعل سبق هنا بعلى ، وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾(٢) باللام . والملاحظ أن الفعل عدى بعلى لكون السابق ضاراً ، وعدى باللام لكون السابق نافعا فتأمل كيف ميز الحرف بين المقصود بالفعل .

قال الزمخشرى : جىء بعلى مع سبق الضار كما جىء باللام مع سبق النافع قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾(٣) ونحوه قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٤) وقول عمر ﷺ : « ليتها كانت كفافا لاعلى ولا لى » (٥).

هـ قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٦).

ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمد لهؤلاء المشركين فى عبادتهم غير الخالق الرازق من الذى يرزقكم من السموات من مطر وحرارة وضوء

(١) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٤٦ بتصرف وصفوة التفاسير القسم ٩ ص ٥٧.
(٢) سورة الأنبياء : الآية (١٠١) .
(٣) سورة الصافات الآية (١٧١) .
(٤) سورة البقرة الآية (٢٨٦) .
(٥) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٤٦.
(٦) سورة سبأ الآية (٢٤) .

ونور مما تعرفونه وتشاهدونه ومما لا تعرفونه من الأصناف والألوان التى تنكشف آنا بعد آن ، ومن الأرض من نبات وحيوان وعيون ماء وزيوت ومعادن وكنوز . وغيرها مما يعرفه القدامى وما ينكشف غيره على مدار الزمان ، « قل الله » أى قل لهم : الله الرازق لا آلهتكم . قال ابن الجوزى : وإنما أمر عليه السلام أن يسأل الكفار عن هذا احتجابا عليهم بأن الذى يرزق هو المستحق للعبادة ، وهم لا يثبتون رازقًا سواه ، ولهذا جاء الجواب « قل الله » لأنهم لا يجيبون بغير هذا » [١].

ثم أمره سبحانه أن يخبرهم بأنهم على ضلالة ، لكن على وجه الإنصاف فى الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى ومن هو على الضلالة ، فقال ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قال الشوكانى : والمعنى : أن أحد الفريقين من الذين يوحدون الله الخالق الرازق ويخصونه بالعبادة ، والذين يعبدون الجمادات التى لا تقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولاضر لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلالة، ومعلوم لكل عاقل أن من عبد الذى يخلق ويرزق وينفع هو الذى على الهدى ، ومن عبد الذى لا يقدر على خلق ولا رزق ، ولا نفع ولا ضر هو الذى على الضلالة ، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى ، وهم المسلمون ، وفريق الضلالة وهم المشركون على وجه أبلغ من التصريح [٢]

وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(١) ينظر تفسير ابن الجوزى جـ ٦ ص ٤٥٤ .
(٢) ينظر فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٣٢٥ .

عبر « بعلى » فى جانب الهدى و« بفى » فى جانب الضلال ، وهذا أمر يحتاج إلى فضل تأمل لمعرفه ما أفاده كل من الحرفين فى موضعه الذى أتى فيه من لطائف وأسرار فسبحان من هذا كلامه .

قال الزمخشرى فى ذلك : فإن قلت : كيف خولف بين حرفى الجرّ الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال كأنه منغمس فى ظلام مرتبك فيه لا يدرى أى يتوجه (١).

ففى التعبير بكل من الحرف « على » والحرف « فى » استعارة تبعية مكنية أبرزت المعنى وأوضحته فى صورة شىء محسوس .

قال صاحب التحرير والتنوير : جىء فى جانب أصحاب الهدى بحرف الاستعلاء المستعار للتمكن تمثيلاً لحال المهتدى بحال متصرّف فى فرسه يركضه حيث شاء ، فهو متمكن من شىء يبلغ به مقصده . وهى حالة مُماثلة لحال المهتدى على بصيرة ، فهو يسترجع مناهج الحق فى كل صوب ، متسع النظر ، منشرح الصدر .

وجىء فى جانب الضالّين بحرف الظرفية المستعار لشدة التلبس بالوصف تمثيلا لحالهم فى إحاطة الضلال بهم بحال الشىء فى ظرف محيط به ، لا يتركه يفارقه ولا يتطلع منه على خلاف ما هو فيه من ضيق يلازمه (٢).

وفى الآية لطائف أخرى منها :

(١) ينظر الكشاف جـ٣ ص ٢٥٩ . (٢) ينظر التحرير والتنوير جـ ١١ ص ١٩٣ .

زيادة الإهتمام بالمقول الدال عليه إعادة الأمر بالقول فى قوله تعالى « قل » فإن أصل الأمر بالقول فى مقام التصدى للتبليغ دال على الإهتمام ، وإعادة ذلك الأمر زيادة فى الإهتمام .

ومنها أن الإستفهام فى قوله تعالى ﴿ قُلْ مَن ﴾ أفاد التنبيه على خطأ هؤلاء المشركين فى عبادتهم ، ولذلك أعقب بالجواب من طرف السائل بقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ لتحقق أنهم لا ينكرون ذلك الجواب .

قال الزمخشرى : أمره بأن يقررهم بقوله ﴿ مَن يَرْزُقُكُم ﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله يرزقكم الله ؛ للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبو أن يتكلموا به ، لأن الذى تمكن فى صدورهم من العناد ، وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم : فما لكم لا تعبدون من يرزقكم ، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ، ألا ترى إلى قوله ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ﴾ (١) حتى قال ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ ثم قال ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلال ﴾(٢) فكأنهم كانوا يقرّون بألسنتهم مرّة ، ومرة كانوا يتلعثمون عناداً وضراراً وحذاراً من إلزام الحجة (٣).

وفى عطف قوله تعالى ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ على الإستفهام إبراز المقصد بطريقة خفية توقع الخصم فى شَرَك

---

(١) سورة يونس الاية (٣١) .
(٢) سورة يونس الآية (٣٢) .
(٣) ينظر الكشاف حـ ٣ ص ٢٥٨ .

المغلوبية ، وذلك بترديد حالتي الفريقين بين حالة هدى وحالة ضلال ؛ لأن حالة كل فريق لما كانت على الضد من حال الفريق الآخر بيّن موافقة الحق وعدمها ، تعين أن أمر الضلال والهدى دائر بين الحالتين لا يعدو انهما ؛ ولذلك جيء بحرف « أو » المفيد للترديد المنتزع من الشك .

وهذا اللون من الكلام يسمى الكلام المنصف ، وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدل ، ويسمى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة [١].

وفي قوله أيضا : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ مقابلة ، ولف ونشر مرتب [٢] أفاد الإشارة إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين ؛ فإنه سبحانه ذكر ضمير جانب المتكلم وجماعته ، وجانب المخاطبين ، ثم ذكر حال الهدى ، وحال الضلال على ترتيب ذكر الجانبين، فأومأ إلى أن الأولين موجهون إلى الهدى ، والآخرين موجهون إلى الضلال المبين ، لا سيما بعد قرينة الاستفهام ، وهذا أيضا من التعريض ، وهو أوقع من التصريح لاسيما في استنزال طائر الخصم .

وفيه أيضا تجاهل العارف . وعليه فقد التأم في هذه الجملة ثلاث محسنات من البديع ، ونكتة من البيان ، فاشتملت بذلك على أربع

---

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ١١ ص ١٦٢ .

(٢) اللف والنشر : هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرده إليه ، ينظر الإيضاح لتخليص المفتاح شرح عبد المتعال جـ ٤ ص ٣٤.

خصوصيات (١).

٦ـ قال تعالى : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ (٢) قال صاحب مفاتيح الغيب . قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم لبعض : ﴿ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ ويعنى بالحرث الثمار والزروع والأعناب ، ولذلك قال : ﴿ صَارِمِينَ ﴾ لأنهم أرادوا قطع الثمار من هذه الأشجار (٣).

أى : نادى بعضهم بعضا حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أى اذهبوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكم وأعنابكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها (٤).

والناظر فى قوله تعالى: ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ يقول لما لم يقل : اغدوا إلى حرثكم ، وما فائدة التعبير بعلى دون إلى ؟

قال الزمخشرى : فإذا قلت : هلا قيل اغدوا إلى حرثهم وما معنى على قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوا عليه ، كما تقول غدا عليهم العدّو (٥).

فالتعبير بعلى أفاد تمكن الوصول إلى حرثهم ، وسيطرتهم عليه ، وفيه حث بعضهم بعضا وتأكيد عزمهم على قطع ثماره .

قال صاحب التحرير والتنوير : كأنه قيل : اغدوا تكونوا على حرثكم ، أى مستقرين عليه (٦).

---

(١) ينظر التحرير والتنوير حـ ١١ ص ١٩٢ بتصرف .

(٢) سورة القلم الأيتان (٢١ ، ٢٢) .

(٣) ينظر مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى حـ ١٥ ص ٦٦٢ دار الغد العربى .

(٤) ينظر صفوة التفاسير للصابونى القسم ١٩ ص ١٨ بتصرف.

(٥) ينظر الكشاف حـ ٤ ص ١٤٩ .　　(٦) ينظر التحرير والتنوير حـ ١٤ ص ٨٣.

رابعا : حرف الجار « فى »

هذا الحرف من الحروف التى تعمل الجار فيما تدخل عليه من الأسماء ، وله عدة معان : منها : الظرفية ، وهى إما مكانية أو زمانية حقيقية ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾[1]. أو مجازية نحو : قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ ﴾ [3].

ومنها المصاحبة : نحو قوله تعالى : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ ﴾ [4]. أى : معهم ... وقوله تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ [5] أى معه زينته .

ومنها التعليل نحو قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [6].

وفى الحديث « إن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها » أى بسبب هرة .

ومنها أن تأتى بمعنى إلى كقوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾[7]. أى إلى أفواههم .

ومنها الاستعلاء نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ

---

(١) سورة الروم . الآيات (١، ٢، ٣، ٤) .
(٢) سورة البقرة الآية (١٧٩) .
(٣) سورة يوسف الآية (٧) .
(٤) سورة الأعراف لآية (٣٨) .
(٥) سورة القصص . الآية (٧٩) .
(٦) سورة يوسف الآية (٣٢)
(٧) سورة إبراهيم الآية (٩) .

النَّخْلِ ﴾[١]. وقولهم : هم صلبوا العبد أى فى جذع نخلة .. إلى غير ذلك من المعانى التى يدل عليها الحرف « فى » مما هو مذكور فى كتب اللغة [٢].

وهذه طائفة من الآيات القرآنية التى ورد فيها حرف الجار « فى » وكان له فى موضعه لطائف وأسرار بيانية .

١ـ قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ [٣].

هذه الآية الكريمة حينما نقرؤها يستوقفنا قوله تعالى ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ أى الأموال ، ونتساءل لماذا لم تقل الآية « وارزقوهم منها » ، فالإعطاء يكون من الأموال لا فيها ، فالذى يعطى غيره قدرا من ماله يعطيه منه لا فيه . ولكنّ المتدبر لمقصود تلك الآية الكريمة يجد أن الحرف (فى) هو المناسب للمقصود النبيل الذى يدعو إليه الإسلام فى حدبه وعطفه ورعايته للسفيه الذى لا يحسن التصرف فى ماله .

فالآية توجب على ولى أمر السفيه أن يتقى الله ويخشاه ، وأن يعطف على السفيه ويرعاه ، ومن أهم وسائل الرعاية أن ينمى له ماله الذى تحت يده ، ويعطيه نفقته من الربح أو العائد لا من أصل المال ، حتى إذا عقل أو رشد ، وأصبح يحسن التصرف ، وجد ماله لم ينفد ، وهذا العمل

(١) سورة طه لآية (٧١) .
(٢) ينظر معانى الحروف للرمانى ص ٩٦ ، والمغنى اللبيب لابن هشام حـ ١ ص ١٤٤ وهمع الهوامع مع شرح جمع الجوامع للسيوطى حـ ٢ ص ٣٠.
(٣) سورة النساء الآية (٥) .

الإنسانى السديد لا يؤدى معناه إلا الحرف « فى » لا « من » فكأن أموال السفيه وعاء أو ظرف يحتوى العائد والربح بالتنمية والتثمير من جانب الولى ذى الضمير

ويؤكد هذا الهدف النبيل المقصود من الآية الكريمة الذى أفاده التعبير بالحرف « فى » دون الحرف « من » سياق الآية الكريمة حيث إن الخطاب فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا ﴾ للأولياء نهوا أن يؤتوا المبذرين من اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها ، والأموال فى قوله تعالى: ﴿ أَمْوَالَكُمُ ﴾ أموال اليتامى ، وقد أضيفت إلى ضمير الأولياء تنزيلا لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء ، فكأن أموالهم عين أموالهم لما بينهم وبينهم من الإتحاد والجنس والنسب مبالغة فى حملهم على المحافظة عليها ، وقد أيد هذا المقصد أيضا حيث عبر عن جعلها مناطا لمعاش أصحابها بجعلها مناطا لمعاش الأولياء فقال تعالى ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ أى : جعلها الله شيئا تقومون به وتنتعشون .. فلو ضيعتموه لضعتم ، ثم زيد فى المبالغة حتى جعل ما به القيام قياما ، فأكنها فى أنفسها قيامكم وانتعاشكم [1].

ولكى نقف على أسلوب القرآن المعجز فى تعبيره وبيانه ، وندرك أن أسلوبه جاء فى قمة البلاغة ، ووفقا لمقتضى الحال . نقرأ قوله تعالى فى سورة النساء بعد الآية السابقة بقليل : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [2].

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود حـ ص ٣١٦ بتصرف .

(٢) سورة النساء الآية (٨).

حيث نجد الأمر هنا بالعطاء ممثلا فى قوله تعالى ﴿ فَارْزُقُوهُم ﴾ كما فى الآية السابقة أيضا ، ولكن الإعطاء المأمور به هنا من الأموال لا فيها كما فى الآية السابقة ؛ لأن المعطين . أى الذين سيتناولون العطاء - ليسوا هنا سفهاء، والأموال ليست أموالهم ، ولا يوجد ولى أمر يؤمر بتنمية المال قبل الإعطاء منه . ومن ثم كان الأمر بالعطاء [1] . من الأموال . أى التركة ، لا فيها .

ولا يسعنا إلا أن نقول : ما أحكم الأسلوب ، وما أبلغ الحرف فى إفادة المطلوب ، ففعل الأمر فى الآيتين واحد هو ﴿ فَارْزُقُوهُم ﴾ ولكن أحدهما يدل على العطاء من الربح والعائد ، والثانى : يدل على العطاء من أصل المال ، وجاء التمييز بين العطاءين بواسطة حرفين ، أحدهما أفاد المعنى الأول وهو حرف الجر « فى » والثانى أفاد المعنى الآخر وهو حرف الجر « من »

وقد أغنى الحرف « فى » عن كلام كثير هو الأمر بالعطاء من أرباح الأموال المملوكة للسفهاء عن طريق تشغيلها والإتجار فيها وتنميتها ، دون الإعطاء والأنفاق عليهم من أصل أموالهم مخافة أن تنفد بالإنفاق منها فيقع السفيه فى الإملاق .

هذا الكلام المحتوى على التحليل والتعليل أغنى عنه استخدام حرف الجر « فى » فما أبلغ كلام رب العالمين . الذى حوى البيان مع الإيجاز .

(١) (من) هنا للتبعيض : أى أعطوهم شيئا من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة . تقول : لبست من الثياب ثوباً ، وقبضت من الدراهم درهما ، أى لبست بعض الثياب ، وقبضت بعض الدراهم . ينظر تفسير أبى السعود جـ١ ص ٣١٨ ، ومعانى الحروف للرمانى ص ٩٧ .

٢- قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

قال الشوكانى فى بيان مناسبة هذه الآية لما قبلها : لما لمز المنافقون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قسم الصدقات - يعنى ما جاء فى قوله تعالى ومنهم من يلمزك فى الصدقات .. الآية - بين الله لهم مصرفها دفعا لطعنهم وقطعا لشغبهم (٢).

وقال صاحب التحرير والتنوير : هذه الآية اعتراض بين جملة ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ وجملة ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ الآية وهو استطراد نشأ عن ذكر اللمز فى الصدقات أدمج فيه تبين مصارف الصدقات (٣).

هذه الآية بيان لمصرف الزكاة وحصرها فى هذه الأصناف الثمانية فقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ أى لا تنال الصدقات إلا للفقراء ، والفقير هو الذى له بلغة من العيش ولكن لا تكفيه لوازم المعيشة ، وضده الغنى . والمسكين وهو ذو المسكنة الذى لا شىء له ، وقيل : المسكين أحسن حالا من الفقير والمسألة خلافية (٤). ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى الجباة الذين يجمعون الصدقات ، ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ هم الذين تؤلف ، أى : تؤنس نفوسهم للإسلام من الذين دخلوا فى الإسلام

---

(١) سورة التوبة الآية (٦٠) .
(٢) ينظر فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٣٧١.
(٣) ينظر التحرير والتنوير جـ ٦ ص ٢٣٦.
(٤) ينظر فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ٣٧٢.

بحدثان عهد ، أو من الذين يرغّبون فى الدخول فى الإسلام لأنهم قاربوا أن يُسلموا . والتأليف : إيجاد الألفة وهى التأنس .

﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ العبيد جمع رقبة وتطلق على العبد ، أى وفى فك الرقاب لتخليصهم من الرق . وفيه مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وأراد الكل .

﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ أى : المديونين الذين أثقلهم الدين وضاقت أموالهم عن آداء ما عليهم .

﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : المجاهدين والمرابطين ، وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد .

﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أى : الغريب الذى انقطع فى سفره .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عليم بمصالح العباد ، حكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة (١). قال فى التسهيل : وإنما حصر مصرف الزكاة فى تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه فى المعنى بآية اللمز فى الصدقات (٢).

والذى يدعو إلى تأمل ويحتاج إلى بيان هو علة العدول عن «اللام» إلى « فى » فى الأصناف الأربعة الأخيرة ، وما أفاده هذا الحرف.

قال الزمخشرى : فى بيان ذلك : فإن قلت لم عدل عن اللام إلى « فى » فى الأربعة الأخيرة . قلت : للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق

(١) ينظر صفوة التفاسير القسم ٥ ص ٢٨ .

(٢) ينظر التسهيل حـ ٢ ص ٧٩ .

التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن « فى » للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصبا ، وذلك لما فى فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر وفى فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازى الفقير أو المنقطع فى الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال ، وتكرير « فى » فى قوله ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين(١).

وقال صاحب الإنتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال : وثمّ سر أخر هو أظهر وأقرب وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل مُلاّك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذوه ملكا ، فكان دخول اللام لائقابهم ، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم ، ولكن فى مصالح تتعلق بهم ، فالمال الذى يصرف فى الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفا إلى أيدهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم مَحَالٌ لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به ، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصا لذممهم لا لهم ، وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك ، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا فى سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور باللام ممكن ، ولكنه على القريب منه أقرب (٢).

(١) ينظر الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٢) ينظر الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال لابن المنير الإسكندرى المالكى على الكشاف جـ٢ ص ١٥٩ .

ومجمل القول : أن في العدول عن اللام إلى الحرف « في » في الأربعة الأخيرة لطائف وأسرار أهمها :

الإشارة إلى أن الأصناف الأربعة الأخيرة هم أحق وأولى من الأربعة الأولى في استحقاق التصدق عليهم لأن كل صنف من الأربعة الأخيرة يحمل وصفاً آخر يجعله أولى بالإستحقاق .

أن دخول الحرف « في » الدالة على الظرفية على الأربعة الأخيرة أفاد تنزيلهم منزلة الوعاء والظرف للصدقة والمصب لها ، لأن « في » تدخل على ما هو ظرف أو ما نزل منزلة الظرف .

أنه لم تدخل اللام على الأربعة الأخيرة لئلا يتوهم أن الأربعة تدفع إليهم أموال الصدقات، ودخلت في للتنبيه على أن تلك الأموال تبذل في عتق الرقاب بشراء أو إعانة على نجوم كتابة ، أو فداء أسرى المسلمين ، وفي سداد ديون الغارمين الذين ضاقت أموالهم عن أداء ما عليهم من الديون وفي ذلك رحمة للدائن والمدين .

وفي سبيل الله ، وهو ما تقام به وسائل الجهاد من آلات وحراسة في الثغور .

وابن السبيل لأنه جمع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال.

فالأربعة كما هو واضح لا يملكون ما يصرف نحوهم كالأربعة الأول ولكن يصرف في مصالح تتعلق بهم ولذا دخل عليهم الحرف « في » دون اللام التي تفيد الملكية .

٣- قال تعالى : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ

الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ (١).

هذه الآية الكريمة تحكى لنا ما قاله فرعون للسحرة وما توعدهم به عندما آمنوا بموسى واتبعوا دينه : فقد قال فرعون للسحرة آمنتم بموسى وصدقتموه بما جاء به قبل أن أسمح لكم بذلك ، وقبل أن تستأذنونى ؟ ، إنه رئيسكم الذى علمكم السحر فاتفقتم معه لتذهبوا بملكى ، ثم توعدهم وهددهم بالقتل والتعذيب . فقال ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ﴾ أى : فوالله لأقطعن الأيدى والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى ، والرجل اليسرى أو بالعكس ، ولأعلقنكم على جذوع النخل ، وأقتلنكم شرَّ قتلة ، ولتعلمن أيها السحرة من هو أشدُّ منا عذابا وأدوم ، هل أنا أم رب موسى الذى صدقتم به وآمنتم (٢).

والمتأمل فى النسق القرآنى يجد فى الآية الكريمة مواضع تحتاج إلى وقفات يتبين من خلالها إعجاز القرآن الكريم وبيانه الذى يجعلنا نعيش مع الموقف نفسه .

فقوله تعالى : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ قال الشوكانى : قرىء على الاستفهام التوبيخى : أى : كيف آمنتم به من غير أذن منى لكم بذلك . وليس ثمة إذن منه لهم فى ذلك واقع بعده أو متوقع (٣).

---

(١) سورة طه الآية (٧١) .
(٢) ينظر صفوة التفاسير القسم (٨) ص ٦٤ بتصرف .
(٣) ينظر : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير حـ٣ ص ٣٧٦ .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أراد فرعون به أن يدخل الشبهة على الناس ، وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الإيمان بالله تعالى ، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى ؛ ولا كان رئيساً لهم ، ولا بينه وبينهم مواصلة ، قال الألوسى : كأن اللعين ويخهم على إيمانهم له عليه السلام من غير إذنه لهم ؛ ليرى قومه أن إيمانهم غير معتد به . حيث كان بغير إذنه . ثم استشعر أن يقولوا : أى حاجة إلى الإذن بعد أن صنعنا ما صنعنا ، وصدر منه عليه السلام ما صدر ، فأجاب عن ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ .... الخ . أى : ذلك غير معتد به أيضا ؛ لأنه أستاذكم فى السحر فتواطأتم معه على ما وقع ، أو علمكم شيئا دون شيء ، فلذلك غلبكم [(١)] .

والملفت للنظر : قوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ حيث عبر بفى دون على . وإيثار « فى » الدالة على الظرفية دلالة على إبقائهم عليها زمانا مديداً تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار الظرف فى المظروف المشتمل عليه .

وفى التعبير بالحرف « فى » استعارة تبعية ، لأن هذا الحرف موضوع لتلبس الظرف بالمظروف الحقيقى كما تقول « الطائر فى العش » ولما كانت الجذوع لا تصلح أن تكون ظرفا للمصلوبين ، يكون الحرف «فى» مستعملا فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة فتكون استعارة ، ويقال فى إجرائها شبهت الجذوع بالظروف الحقيقية بجامع التمكن فى كل ، ثم

---

(١) ينظر : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم ، والسبع المثانى . دار الغد العربى جـ ١١ ص ٣٠٥ .

استعيرت « فى » الموضوعة لتلبس الظرف بالمظروف حقيقة لتلبس الجذوع بالمصلوبين على سبيل الإستعارة التصريحية التبعية [١] .

ومن أسرار هذا التعبير أنه أفاد التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذى يعتمد عليه الطغاة . ويسلطونه على الأجسام والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ، واستعلاء فرعون بقوته الغاشمة . قوة الوحوش فى الغابة ، القوة التى تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة ، وحيوان يقرع بالناب .

(١) ينظر شروح التخليص حـ ٤ ص ١١٣ بتصرف .

خامسا « من » الجارة

وهى من الحروف العوامل، وعملها الجر، ولها معان :

منهـا: أن تكون لابتداء الغاية ، وهو الغالب عليـهـا ، وذلك نحـو قولك : خرجت من الدار ، وجئت من البصرة ومنها أن تكون للتبعيض ، وذلك نحو قولك : لبست من الثياب ثوبا ، وقبضت من الدراهم درهما ، أى: لبست بعض الثياب ، وقبضت بعض الدراهم.

وقوله تعالى ﴿ مِّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ (١). وعلامتها امكان سد بعض مسدها .

وتكون للجنس : وذلك نحو قولك : هذا ثوب من خز ، وباب من ساج «أى» من هذا الجنس. قال تعالى: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾(٢). أى : الرجس الوثنى .

وقوله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾(٣).، وقوله تعالى ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ (٤).

وتكون للبدل نحو قوله تعالى ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ (٥). وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ (٦). لأن الملائكة لا تكون من الإنس .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٣)
(٢) سورة الحج الآية (٣٠) .
(٣) سورة فاطر الآية (٢) .
(٤) سورة البقرة الاية (١٠٦) .
(٥) سورة التوبة (٣٨) .
(٦) سورة الاحقاف الآية (٦٠) .

هذه بعض معانى الحرف « من » وقد أوصلها ابن هشام إلى خمسة عشر وجها [(١)]. وسأذكر هنا بعض الآيات التى ورد فيها هذا الحرف وكان لذكره . أسرار ولطائف بلاغية تدل على فصيح كلام الله وإعجازه .

١ـ قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [(٢)].

٢ـ قال تعالى : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [(٣)].

٣ـ قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [(٤)].

٤ـ قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

---

(١) ينظر المغنى لابن هشام جـ ٢ ص ١٤ ، ١٥ . (٢) سورة إبراهيم الآية (١٠) .
(٣) سورة الأحقاف الآية (٣١) . (٤) سورة الصف الآيات (١٠ ، ١١ ، ١٢).

إنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

قال أبو السعود عن علاقة الآية الأولى بما قبلها : إن قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ ﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه المقال ؛ كأنه قيل : فماذا قالت لهم رسلهم فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ، ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ فإدخال الهمزة على الظرف للإيذان بأن مدار الانكار ليس نفس الشك ، بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلا منقادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا : أأنتم فى شك مريب من الله تعالى مبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك ، وتسجيلا عليهم بسخافة العقول .

أى : أفى شأنه سبحانه من وجوده ووحدته ووجوب الإيمان به وحده شك ما ؟ وهو أظهر من كل ظاهر ، وأجلى من كل جلى ، حتى تكونوا من قِبَلِهِ فى شك مريب (٢).

ثم إن الرسل ذكروا إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك فى وجوده سبحانه ووحدانيته فقالوا ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما بعد العدم ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى الإيمان به وتوحيده ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ ﴾ أى : إلى وقت مسمى عنده سبحانه ، وهو الموت ، فلا يعذبكم فى الدنيا ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أى : ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الهيئة والصورة ، تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب ،

(١) سورة نوح الآيات : (٢، ٣، ٤) . (٢) ينظر تفسير أبى السعود جـ ٣ ص ١٢٠ .

ولستم ملائكة ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا ﴾ أى : تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها ﴿ فَأْتُونَا﴾ إن كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله ﴿ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدعونه ، وقد جاؤهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة ، ولكن هذا النوع من تعنتاتهم ، ولون من تلوناتهم (١).

والآية الثانية خطاب مَن آمن من الجن برسول الله ﷺ إلى غير المؤمنين منهم يدعونهم فيه إلى الإيمان فقوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ أى : أجيبوا محمداً ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإيمان ، وصدقوا برسالته ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى : يمحو الله عنكم الذنوب والآثام . ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : ويخلصكم وينجيكم من عذاب شديد مؤلم (٢).

أما آيات سورة الصف فهى نداء للمؤمنين وتوجيه لهم إلى ما يسعدهم فى دنياهم وأخراهم روى فى سبب نزول هذه الآيات أن بعض الصحابة قالوا يا نبى الله : لوددنا أن نعلم أى التجارات أحب إلى الله فنتجر فيها !! فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٣) .؟ أى : يا من صدقتم الله ورسوله ، وآمنتم بربكم حق الإيمان ، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن ؟ ، والاستفهام للتشويق . ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : تخلصكم وتنقذكم من عذاب شديد

---

(١) ينظر فتح القدير للشوكانى حـ٣ ص ٩٨ .
(٢) ينظر صفوة التفاسير للصابونى القسم ١٦ ص ١٥ بتصرف .
(٣) ينظر تفسير القرطبى حـ ١٨ ص ٨٧.

مؤلم .. ثم بين تلك التجارة ووضحها فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إيماناً صادقاً ، لا يشوبه شك ولا نفاق ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ أى : وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله . ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد فى سبيل الله ، خير لكم من كل شىء فى هذه الحياة ، إن كان عندكم فهم وعلم ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ هذا جواب الجملة الخبرية ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لأن معناها معنى الأمر . أى آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيله ، فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم . أى يسترها عليكم ، ويمحها بفضله عنكم ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أى ويدخلكم حدائق وبساتين تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أى : ويسكنكم فى قصور رفيعة فى جنات الإقامة ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى : ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، والسعادة الدائمة التى لا سعادة بعدها [(١)].

وأما قوله تعالى فى سورة نوح ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ قال الشوكانى : إنها مستأنفة استئنافا بيانيا على تقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال نوح ؟

فقال : قال لهم ... الخ [(٢)].

ولعل الشوكانى يقصد بالسؤال المقدر ما دعى إليه قوله تعالى

(١) ينظر صفوة التفاسير للصابونى القسم ١٨ ص ٤٦ .
(٢) ينظر فتح القدير للشوكانى حـ ٥ ص ٢٩٧ .

﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كأن سائلا قال بعد سماعه هذه الآية فماذا قال نوح لقومه .

والمعنى فدعاهم إلى الله وقال لهم : إنى لكم منذر ، موضح لحقيقة الأمر ، أنذركم وأخوفكم عذاب الله ، فأمرى واضح ، ودعوتى ظاهرة ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ أى فقلت لهم : اعبدوا الله وحده ، واتركوا محارمه ، واجتنبوا مآثمه ، وأطيعونى فيما أمرتكم به من طاعة الله ، وترك عبادة الأوثان والأصنام .

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم به ، يمحو الله عنكم ذنوبكم التى اقترفتموها قبل إسلامكم ، لأن الإيمان يَجُبُّ ما قبله من الذنوب لا ما بعده.

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : ويمد فى أعماركم إن أطعتم ربكم ، إلى وقت مقدر ومقرر فى علم الله تعالى ، مع التمتع بالحياة السعيدة ، والعيش الرغيد.

قال صاحب التحرير والتنوير : قوله ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وعد بخير دنيوى يستوى الناس فى رغبته ، وهو طول البقاء ، فإنه من النعم العظيمة ، لأن فى جبلة الإنسان حب البقاء فى الحياة على ما فى الحياة من عوارض ومكدرات ... والتأخير : ضد التعجيل ، وقد أطلق التأخير على التمديد والتوسيع فى أجل الشىء . وقد أشعر وعده إياهم بالتأخير أنه تأخير مجموعهم ، أى مجموع قومه ؛ لأنه جُعل جزاءً لكل من عبد الله منهم واتقاه وأطاع الرسول ، فدل على أنه أنذرهم فى خلال ذلك

باستئصال القوم كلهم ، وأنهم كانوا على علم بذلك كما أشار إليه قوله ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كما تقدم آنفا ، وكما يفسره قوله تعالى فى سورة هود ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ أى : سخروا من الأمر الذى يصنع الفلك للوقاية منه ، وهو أمر الطوفان ، فتعين أن التأخير المراد هنا هو عدم استئصالهم .

والمعنى : ويؤخر القوم كلهم إلى أجل مسمى وهو آجال أشخاصهم، وهى متفاوته فالأجل المسمى : هو عمر كل واحد المعين له فى ساعة خَلْقَه المشار إليه فى الحديث « أن الملك يؤمر بكتب أجل المخلوق عندما يُنفَخ فيه الروح » (١).

ولهذا قال بعده ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ ﴾ أى : إن عمر الإنسان عند الله محدود ، لا يزيد ولا ينقص ، وإنما أضيف الأجل إلى الله سبحانه لأنه هو الذى كتبه وأثبته (٢).

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان(٣).

وبعد هذا البيان الموجز لهذه الآيات ، ندرك من خلاله أن فعل المغفرة لم يُعَدَّ بمن إلا فى خطاب الكافرين كما هو الحال فى آية سورة إبراهيم ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ وآية الأحقاف ﴿ يَا قَوْمَنَا

---

(١) ينظر التحرير والتنوير حـ ١٤ ص ١٩٠ .

(٢) ينظر حاشية الصاوى على الجلالين حـ ٤ ص ٢٤٩ .

(٣) ينظر صفوة التفاسير القسم ١٩ ص ٤٣ ، ٤٤ بتصرف .

أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ وآية نوح ﴿ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ .

وعدى بدونها فى خطاب المؤمنين كما هو الحال فى آية الصف ﴿ يَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى ذلك أسراراً ولطائف تدل على عظمة كلام الله وبيانه ، ودقة أسلوبه .

قال الزمخشرى : فإن قلت : ما معنى التبعيض فى قوله « من ذنوبكم » ، قلت ، ما علمته جاء هكذا إلا فى خطاب الكافرين كقوله ﴿ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ وقال فى خطاب المؤمنين : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إلى أن قال ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد [1] .

وقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُم ﴾ فإن قلت : لم بعض فى قوله ﴿ مِّن ذُنُوبِكُم ﴾ قلت : لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم ونحوها [2] .

إلا أن صاحب الإنتصاف لم يرضه هذا الجواب وقال : ليس ما أطلقه الزمخشرى من أن الإيمان لا يغفر المظالم بصحيح ؛ لأن الحربى لو

(١) ينظر الكشاف حـ٢ ص ٣٩٥ . (٢) ينظر الكشاف حـ ٣ ص ٤٥١ .

نهب الأموال المصونة ، وسفك الدماء المحقونة ، ثم حسن إسلامه جَبَّ الإسلام عنه إثم ما تقدم بلا إشكال ، ويقال : إنه ما وعدا لمغفرة الكافر على تقدير الإيمان فى كتاب الله تعالى إلا مبعضة ، وهذا منه ، فإن لم يكن لاطراده بذلك سر ، فما هو إلا أنّ مقام الكافر قبض لا بسط فلذلك لم يبسط رجاءه فى مغفرة جملة الذنوب [١].

وقال أبو السعود قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى بعضها وهو ما عدا المظالم مما بينهم وبينه تعالى ، فإن الإسلام يجبه ، قيل : هكذا وقع فى جميع القرآن فى وعد الكفرة دون وعد المؤمنين ، تفرقة بين الوعدين ، ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت فى خطاب الكفرة مرتبة على محض للإيمان ، وفى شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة ، والتجنب عن المعاصى ونحو ذلك ، فيتناول الخروج من المظالم . وقيل : المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم [٢].

من هذه النقول يتضح لنا أن الآيات التى جاءت فيها ، من ، وردت فى خطاب الكافرين ، والآيات التى جاءت بدونها وردت فى خطاب المؤمنين .

فأفادت بذلك أن هناك فرق بين الوعدين ، وعد المؤمنين ووعد الكفرين .

---

(١) ينظر الإنتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال على الكشاف حـ ٣ ص ٤٥١ .
(٢) ينظر تفسير أبى السعود حـ٣ ص ١٢٠ .

كما أفاد مجيء من في وعد الكفرة دون وعد المؤمنين بيان أن مقام الكافرين قبض ومقام المؤمنين بسط . وأن المغفرة في حق الكافر بعد إيمانه ليس كالمغفرة في حق المؤمن . إذ هي في حق الكافر متوقفة على إيمانه وإمتثال ما يدعو إليه . وفي حق المؤمن تكون بفعل الطاعات وإجتناب المحرمات فهي في حقه أعم وأشمل .

المبحث الثانى

من الأسرار البلاغية لاستعمالات حروف العطف

حروف العطف وهى التى يسمى المعطوف بها عند البصريين شركة وعند الكوفيين وهو المتداول نسَقا بفتح السين اسم مصدر نسقت الكلام أنسقه نسقا ، وهو من عطف بعضه على بعض [١] .

وقد حده ابن عقيل بأنه : التابع : المتوسط بينه وبين متبوعه أحد حروف العطف وجمعها ابن مالك فى قوله :

فالعطف مطلقا: بواو، ثم، فا : ٠٠٠حتى أم ، أو ، كـ ، فيك صدق ووفا ،

وأتبعت لفظا فحسبُ : بل ، لا ٠٠٠ لكن ، كـ ، لم يبدوا امرؤ لكن طلا، [٢]

وفى هذا المبحث سأعرض بعض الآيات القرآنية التى ورد فيها أحد حروف العطف ، وكان لاستعماله فى الآيات التى جاء فيها أسرار بلاغية وفنية . تدل على إعجاز النظم القرآنى.

---

(١) ينظر همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطى حـ ٢ ص ١٢٨.

(٢) ينظر شرح ابن عقيل تحقيق محى الدين عبد الحميد حـ ٣ ص ٢٢٦ .

أولا : حرف الواو

وهى لمطلق الجمع : أى الإجتماع فى الفعل من غير تقييد بحصوله من كليهما فى زمان أو سبق أحدهما : فقولك : جاء زيد وعمرو يحتمل على السواء أنهما جاآ معا ، أو زيدا أولا ، أو آخرا ، ومن ورودها فى المصاحب قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ (١). وفى السابق قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ (٢). وفى المتأخر قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (٣).

واختصت الواو من بين حروف العطف بأنها يعطف بها حيث لا يكتفى بالمعطوف عليه ، وإنما يكون ذلك عندما يكون الحكم مما لا يقوم إلا بمتعدد نحو : اختصم زيد وعمرو ، وهذان زيد وعمرو ، واشترك زيد وعلىٌ.

واختصت بعطف الخاص على العام وعكسه نحو قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٤). وقوله تعالى ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٥).

واختصت بعطف المرادف على مرادفه نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا

---

(١) سورة العنكبوت الآية (١٥) .
(٢) سورة الحديد الآية (٢٦) .
(٣) سورة الشورى الآية (٣) .
(٤) سورة البقرة الآية (٩٨).
(٥) سورة نوح الآية (٢٨) .

أَشْكُو بَثِّي وَحُـزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾(١) . إلى غـيـر ذلك من المعـانى التى تدل عليها(٢) .

وفيما يأتى آيات وردت فيها الواو العاطفة وكان فى مجيئها دون غيرها من حروف العطف فى هذا الموضع فوائد وأسرار دقيقة .

١ـ قـال تعـالى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ (٣) .

هاتان الآيتـان تتحـدثان عن اليـتامى ومـا ينبـغى علـى الولى من المحافظة على أموالهم وردها إليهم كاملة عند بلوغهم . وعلى ولى اليتيمة إن رغب فى الزواج منها أن يعطها مهر مثلها وإلا فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ، ولم يضيق الله عليه .

فعن عروة بن الزبير أنه سأل السيدة عائشة رضى الله عنها عن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ فقالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تَشْرَكُه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها

---

(١) سورة يوسف الآية (٨٦) .
(٢) ينظر همع الهوامع لشرح جمع الجومع للسيوطى جـ ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩ بتصرف .
(٣) سورة النساء الآيتان (٢ ، ٣) .

غيره ، فنهوا عن ذلك إلا أن يُقسطوا لهنّ ويبلغوا لهنّ أعلى سنتهن فى الصداق ، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ ، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله « ويستفتونك فى النساء » [(١)].

فقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ أى : أعطوا اليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار أموالهم إذا بلغوا . ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ أى:لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أى : لا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعا ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أى ذنبا عظيما ، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية لأنه ضعيف ، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله . ثم أرشد سبحانه وتعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل فقال : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ أى : إذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أى : أنكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم اثنين ، وإن شاء ثلاثا ، وإن شاء أربعا ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ أى : إن خفتم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على واحدة ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أى أقتصروا على نكاح الاماء لملك اليمين ؛ إذ ليس لهن من الحقوق للزوجات ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أى : ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألا تميلوا وتجوروا [(٢)].

(١) أخرجه البخارى ومسلم.

(٢) ينظر صفوة التفاسير للصابونى . القسم الثانى ص ٧٩ ، ٨٠.

والذى يستوقفنا فى هاتين الأيتين العطف بالواو دون أو ، ومجىء الأعداد مثنى وثلاث ورباع وهى معدولة عن أعداد مكررة . أى ثنتين ثنتين وثلاثا ثلاث وأربعا أربعا فى قوله تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ .

فعن مجىء الأعداد مثنى وثلاث ورباع التى تدل على معنى التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له ، كما تقول للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، ولو أفردت لم يكن له معنى [١].

وقال أبو السعود [٢] فى تفسيره : لو أفردت لفهم منه تجويز الجمع بين تلك الأعداد دون التوزيع [٣].

وعن العطف بالواو دون أو ، أفاد الزمخشرى : أن العطف جاء بالواو فى الآية كما جاء فى المثال الذى ذكره ، ولو قيل : اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة ، علم أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة ، وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على تثنية ، وبعضه على تثليث ، وبعضه على تربيع ، وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذى دلت عليه الواو ، وتحريره أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على

---

(١) ينظر الكشاف للزمخشرى جـ١ ص ٢٤٤.

(٢) أبو السعود : هو إمام المدققين قاضى القضاة أبو السعود محمد بن محمد العمادى . كان رحمه الله محبا للعلم ، واسع المعرفة ، ضلع فى العربية على درجة عالية من الخلق ، ولد رحمه الله تعالى سنة ٨٩٦ هـ وتوفى سنة ٩٥١ عليه سحائب الرحمة والرضوان.

(٣) ينظر تفسير أبى السعود المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ١ ص ٣١٥ . الطبعة الأولى . المكتبة الحسينية المصرية.

طريق الجمع إن شاؤا مختلفين فى تلك الأعداد ، وإن شاؤا متفقين فيها محظوراً عليهم ما وراء ذلك (١).

وقال : أبو السعود فى تفسيره : ولو ذُكِرَتْ بكلمة أو ـ أى : لو جاء العطف فى الآية بكلمة أو ـ لفات تجويز الإختلاف فى العدد ، (٢).

ويقول : الشوكانى (٣).وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون أو ، لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المذكورة دون غيره ، وذلك ليس بمراد من النظم القرآنى (٤).

وأفاد الألوسى (٥).أن النظم القرآنى : إنما أُتِى فيه بالواو دون « أو » ليفيد الكلام أن تكون الأقسام على هذه الأنواع غير متجاوز إياها إلى ما فوقها ، لا أن تكون على أحد هذه الأنواع غير مجموع بين اثنين منها ؛

---

(١) ينظر الكشاف حـ١ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ بتصرف .

(٢) ينظر تفسير أبى السعود حـ ١ ص ٣١٥.

(٣) الشوكانى : هو محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى . ثم الصنعانى ، الإمام العلامة الربانى ، بحر العلوم وشمس الفهوم ، نشأ رحمه الله تعالى بصنعاء وتربى فى حجر أبيه على العفاف والطهارة ، وأخذ فى طلب العلم وسماع العلماء الأعلام منهم والده رحمه الله ، وعبد الرحمن بن قاسم المدانى ، والعلامة أحمد ابن عامر الحدائى وغيرهم . له مؤلفات مفيدة فى فنون عديدة منها كتاب نيل الأوطار ، وأدب الطلب ومنتهى الأرب . ولد سنة ١١٧٣ هـ وتوفى سنة ١٢٥٠ هـ .

(٤) ينظر : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير حـ ١ ص ٤٢٠ .

(٥) الألوسى : هو العلامة أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله بن محمود ابن درويش ابن محمد بن ناصر بن حسين الألوسى البغدادى ـ ينتهى نسبه إلى الإمام الحسينى بن على ابن أبى طالب . ولد رحمه الله فى سنة ١٢١٧ هـ بغداد . ونشأ فى بيت العلم والفضل والأدب فأغترف من مناهل العلم فى بغداد . وقد بدأ التأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وشغل فى زمن أبيه وظيفة محافظ كتب مدرسة الشهيد على باشا التى كان أبوه فيها رئيس المدرسين . له مؤلفات كثيرة . منها الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية ، وسفرة الزاد لسفر الجهاد وغيرها من المؤلفات القيمة التى تربو على خمسة عشر مؤلفا . توف رحمه الله فى سنة ١٢٧٠هـ .

وذلك بناءً على أن الحال بيان لكيفية الفعل . والقيد فى الكلام نفى لما يقابله ، والواو ليست لأحد الأمرين ، أو الأمور كأو ، وبهذا يندفع ما ذهب إليه البعض من جواز التسع تمسكا بأن الواو للجمع فيجوز الثنتان ، والثلاث والأربع ، وهى تسع ، وذلك لأن من نكح الخمس ، أو ما فوقها لم يحافظ على القيد أعنى كيفية النكاح ، وهى كونه على هذا التقدير والتفصيل بل جاوزه إلى ما فوقه (١).

وخلاصة القول بناء على ما أفادته هذه النقول من مجيء الأعداد : مثنى وثلاث ورباع التى تفيد التكرير دون الأعداد ثنتان وثلاث وأربع التى تدل على الإفراد ، ومجيء العطف بالواو دون أو الآتى :

١- أن فى التعبير بقوله تعالى ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ الذى يفيد التكرير بيان لكل واحد من المخاطبين أن يختار من هذه الأعداد المذكورة أى عدد شاء ، إذ هو المقصود ، لا أنَّ بعضها لبعضٍ منهم ، والبعض الآخر لآخر.

٢- أنه لو أفردت الأعداد لفهم من ذلك تجويز الجمع بين تلك الأعداد كلها دون التوزيع .

٣- أنه لو عطف بأولفات تجويز الإختلاف فى العدد بأن ينكح واحد اثنين وآخر ثلاثا أو أربعا .

٤- أن العطف بالواو أفاد حصر الأقسام بأن تكون على هذه الأنواع غير متجاوز إياها إلى ما فوقها ، لا أن تكون على أحد هذه الأنواع غير

(١) تفسير الألوسى المسمى : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى حـ٣ ص ٦٢٤.

مجموع بين اثنين منها .

٥- أن فى هذا التعبير الإلهى العظيم تحديد لما يجوز الجمع بينهن من الزوجات وهن أربع . ورد على من يزعم جواز الجمع بين تسع زوجات.

تعقيب حول تعدد الزوجات:

لما كانت الآية الكريمة التى تناولتها هنا بالبحث والدراسة تتعلق بحكم تعدد الزوجات رأيت من تتمة الفائدة أن اسجل كلمة للصابونى فى هذا الموضوع الحيوى . يقول فيها : إن مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة ، وهى ليست تشريعا جديداً انفرد به الإسلام ، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا حدود ، وبصورة غير إنسانية فنظمه وهذبه ، وجعله علاجا ودواء لبعض الحالات الاضطرارية التى يعانى منها المجتمع وفى الحقيقة فإن تشريع التعدد مفخرة من مفاخر الإسلام ؛ لأنه استطاع أن يحل « مشكلة اجتماعية » هى من أعقد المشاكل التى تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم فلا تجد لها حلا .. إن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كفتاه فماذا نصنع حين يختل التوازن ، ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال ؟ . أنحرم المرأة من نعمة الزوجية و« نعمة الأمومة » ، ونتركها تسلك طريق الفاحشة والرذيلة أم نحل هذه المشكلة بطرق فاضلة نصون فيها كرامة المرأة وطهارة الأسرة ، وسلامة المجتمع ؟ وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال ، فأصبح مقابل كل شاب

ثلاث فتيات ، وهى حالة اختلال اجتماعى ، فكيف يواجهها المشرّع ؟ لقد حل الإسلام المشكلة بتشريعه الإسلامى الرائع ، بينما وقفت المسيحية حائرة مكتوفة الأيدى لا تُبدى ولا تعيد .. إن الرجل الأوربى لا يبيح له دينه التعدد ، لكنه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرذيلة ، يرى الوالد منهم فتاته مع عشيقها فيُسرّ ويغتبط ، بل ويمهّد لهما جميع السبل المؤدية لراحتهما حتى أصبح ذلك عرفًا ساريا اضطرت معه الدول إلى الإعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين ، ففتحت باب التدهور الخلقى على مصراعيه ، ووافقت على قبول مبدأ « تعدد الزوجات » ولكن تحت ستار المخادنة وهو زواج حقيقى لكنه غير مسجل بعقد ، ويستطيع الرجل أن يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأى حق من الحقوق ، والعلاقة بينهما علاقة جسد لا علاقة أسرة وزوجية ، فأعجبُ مِنْ مَنْع « تعدد الزوجات » بالحلال وإباحته بالحرام ، حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية [١].

٢- قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [٢].

هذه الآية الكريمة وردت فى قصة أهل الكهف . وهى تتحدث

(١) ينظر : صفوة التفاسير للصابونى القسم الثانى ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) سورة الكهف الآية (٢٢) .

عما دار بين الخائضين فى عددهم فى عهد النبى ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين . وقيل : هم أهل الكتاب خاصة ، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعا قالوا جميع ذلك ، بل قال بعضهم : ثلاثة رابعهم كلبهم . أى ثلاثة أشخاص جاعلهم كلبهم أربعة بانضمامه إليهم ، قيل : قالته اليهود . وقيل قاله السيد من نصارى نجران ، وكان يعقوبيا .

وقال بعضهم خمسة سادسهم كلبهم . أى : خمسة أشخاص جاعلهم ستة بانضمام كلبهم إليهم ، وقيل قالته النصارى أو العاقب منهم وكان نسطوريا. وقوله : ﴿ رَجماً بِالْغَيْبِ ﴾ أى : رميا بالخبر الخفى الذى لا مطلع عليه ، أو ظنا بالغيب من قولهم : رجم بالظن إذا ظن . والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة والقائلين بأنهم خمسة وقال بعضهم سبعة وثامنهم كلبهم . أى سبعة أشخاص جاعلهم ثمانية بانضمام كلبهم إليهم . قيل هو ما قاله المسلمون بطريق التلقى من هذا الوحى ، وما فيه مما يرشدهم إلى ذلك من عدم نظمه فى سلك الرجم بالغيب [1]. ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المختلفين فى عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال ﴿ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ أى : منكم أيها المختلفون . ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ أى : لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس . قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، كانوا سبعة إن الله عدهم حتى انتهى إلى السبعة [2]. قوله ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً ﴾ أى : فلا تجادل أهل الكتاب فى عدتهم إلا جدال متيقن عالم بحقيقة الخبر وقوله : ﴿ وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ أى : لا تسأل أحداً عن قصتهم فإنَّه فيما أوحى إليك الكفاية .

---

(١) ينظر : تفسير أبى السعود : جـ٣ ص ٢٤٧ بتصرف . وفتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ٢٧٧ بتصرف .

(٢) ينظر : زاد المسير جـ ٥ ص ١٢٦ .

والذى يحتاج فى الآية الكريمة إلى تأمل وبيان قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ حيث جاء قوله : ثلاثة رابعهم كلبهم ، وخمسة سادسهم كلبهم بلا واو ، وجاء قوله سبعة وثامنهم كلبهم بالواو ، فهل لمجيء الواو هنا فائدة ؟.

قال صاحب الكشاف(١) : « فإن قلت فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ، ولم دخلت عليها دون الأوّلين ؟ (قلت) هى الواو التى تدخل الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة فى نحوقولك : جاءنى رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفى يده سيف. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (٢). وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا : سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ، ولم يرجموا بالظن كغيرهم ، والدليل عليه : أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ وأتبع القول الثالث قوله : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ وقال ابن عباس رضى الله عنه (حين وقعت الواو . انقطعت العدّة . أى : لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها ، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات (٣).

فتأمل ما أفادته الواو ـ هنا ـ من لطائف وأسرار . فقد أفادت أن الفرقة الثالثة قد انتهت عندها العدة ، وانقطعت بها القصة ، ولم يكن هناك

(١) ينظر صفوة التفاسير للألوسى القسم ٨ ص ١١ بتصرف .

(٢) سورة الحجر الآية (٤) . (٣) ينظر الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٣٨٥ .

فرقة رابعة تذكر قولا رابعا . قال الإسكافى « والشىء إذا تم وانتهى وكانت الجملة فيما لم ينته يتصل بالأول اتصال الشىء منه ، كانت الواو فيها دليلا على انقضائها ، والآخر فى كلام العرب فى حكم المنقطع منها فى اللفظ ، وإن كان اتصالها بها فى المعنى كاتصال الأولين (١).

كما أفاد مجىء الواو - كما صرح الزمخشرى فى كلامه - أن قول الذين قالوا : سبعة وثامنهم كلبهم هو الصواب ، وأنهم قالوه عن ثبات علم.

قال ابن كثير فى تفسيره : « روى ابن جرير عن عطاء الخرسانى عن ابن عباس أنه كان يقول : أنا ممن استثنى الله عز وجل ، ويقول عدتهم سبعة » (٢).

٣- قال تعالى فى حال أهل النار : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ (٣). وقال فى أهل الجنة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٤).

لما شرح الله أحوال القيامة على سبيل الإجمال فقال ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ بين بعده فى هاتين الآيتين كيفية أحوال أهل العقاب ، ثم كيفية أحوال أهل الثواب.

قال صاحب التحرير والتنوير فى معنى الآيتين : هذا تنفيذ القضاء

(١) ينظر غرة التنزيل ودرة التأويل : ص ٢٢٤.
(٢) ينظر التفسير العظيم لابن كثير حـ٣ ص ٧٨.
(٣) سورة الزمر الآية (٧١) . (٤) سورة الزمر الآية (٧٣).

الذى جاء فى قوله ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ ، وقوله ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ فإن عاقبة ذلك ونتيجته ، إيداع المجرمين فى العقاب وإيداع الصالحين فى دار الثواب .

وابتدىء فى الخبر بذكر مستحقى العقاب ؛ لأنه الأهم فى هذا المقام إذ هو مقام إعادة الموعظة والترهيب للذين لم يتعظوا بما تكرر فى القرآن الكريم من العظات مثل هذه ، فأما أهل الثواب فقد حصل المقصود منهم ، فما يذكر عنهم فإنما هو تكرير بشارة وثناء .

والذى يحتاج إلى التنبيه والوقوف على أسراره هو قوله تعالى فى حق أهل النار: ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ بدون الواو، وفى حق أهل الجنة ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ بالواو. قال الزمخشرى : قيل أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها بدليل قوله: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ (١). فلذلك جيء بالواو ، كأنه قيل : حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها (٢).

وقال الشوكانى : قيل إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم أن يأتوا لكرامتهم على الله ، والتقدير : حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ وحذفت الواو فى قصة أهل النار ، لأنهم وقفوا على النار، وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا . وعلى هذا القول تكون الواو واو الحال بتقدير قد : أى جاءوها وقد فتحت لهم الأبواب . وقيل إنها واو الثمانية ، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا

---

(١) سورة ص الآية (٥٠) .　　　(٢) ينظر الكشاف حـ ٣ ص ٣٥٨.

يقولون فى العدد : خمسة ستة سبعة وثمانية [١].

والذى يمكن استنباطه من هذه النقول : هو أن مجىء الواو فى حق أهل الجنة دون أهل النار دل على أسرار كثيرة ومعان لطيفة .

فقد دل على إمتهان أهل النار وإذلالهم وأن حالهم كحال المحبوس الذى يساق إلى سجنه فلا يفتح له بابه حتى يصل إليه وربما وقف أمامه وقتا ذليلا حتى يفتح له فإذا دخل أغلق عليه حتى لا يحاول الهرب منه.

كما دل مجىء الواو فى حق أهل الجنة على إمتنان الله لهم وزيادة تكريمهم ، فالجنة قد هيئت لاستقبالهم ، وفتحت أبوابها ترحيبا بهم وشوقا إليهم إشتياق الحبيب إلى حبيبه.

قال الصابونى نقلا عن الصاوى : « والحكمة فى زيادة الواو هنا « وفتحت » دون التى قبلها ، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم ، فتفتح لهم ثم تغلق عليهم ، بخلاف أبواب السرور والفرح، فإنها تفتح إنتظاراً لمن يدخلها ، فناسب دخول الواو هنا دون التى قبلها [٢].

وللإسكافى كلام لطيف عن مجىء الواو فى حق أهل الجنة دون أهل النار قال فيه : للسائل أن يسأل عن الواو فى قوله ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ وتركها فى الأول ، وهل كان يجوز حذفها من الثانى واثباتها فى الأول ؟ والجواب عن ذلك ما ذهب إليه بعض المفسرين : أن فى ذلك دلالة على أن أبواب

(١) ينظر فتح القدير للشوكاكى حـ ٤ ص ٤٧٨ .

(٢) ينظر صفوة التفاسير للصابونى القسم ١٤ ص ٦٧ .

جهنم كانت مغلقة ففتحت لما جاؤها ، وأن أبواب الجنة كنت مفتوحة قبل مجيء المؤمنين إليها ، وهذا محتاج إلى بيان ؛ وهو أن قوله : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ جواب لقوله : حتى إذا جاؤها ؛ لأن فى « إذا » معنى الشرط ، وفى جوابها معنى الجزاء ، ولابد لها منه ، وأنت تقول : إذا جئت زيدا فتح لى الباب ، أردت أنّ الباب كان مغلقا ففتح لمجيئك ، وتقول : إذا جئت زيدا وفتح لى الباب ، أردت أن الباب كان مغلقا ، فإن ما بعد الواو لا يقوم مقام الجزاء ، والمخاطب متوقع عند سماع ذلك ما يتم به الكلام ، فإن أراد المتكلم إضمار الجزاء واكتفى بدلالة الشرط عليه ، وذلك إذا كان لفظاهما واحد جاز حذفه ، وعطف ما بعده ، فيكون المعنى حتى إذا جاؤها جاؤها وفتحت أبوابها ، فيحذف جاؤها الثانية لدلالة الأولى عليها ، وعلى هذا قول امرىء القيس.

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن حقف ذى ركام عقنقل

معناه : فلما أجزنا ساحة الحى أجزناها وانتحى بنا ، فإن قيل : وهل يختلف المعنيان إذا حذفت الواو وإذا ثبتت ، قلت : يختلفان فى أن الفتح يقع عند مجيء أهل النار ؛ لأن قوله : فتحت جزاء للشرط ، وحقه إذا كان فعلا أن لا يدخله واو ولا فاء ، ويكون عقيب الشرط ، وإذا حذف الجزاء ، وعطف فعل عليه فقيل : حتى إذا جاؤها وفتحت ، والتقدير حتى إذا جاؤها وأبوابها مفتحة ، وهذا حكم اللفظ.

فأما حكم المعنى فإن جهنم لما كانت أشد المحابس ، ومن عادة الناس فى المحابس إذا شددوا أمرها لا يفتحوا أبوابها إلا لداخل وخارج ،

وكانت جهنم أهولها أمراً وأبلغها عقابا اخبر عنها الإخبار عما شوهد من أحوال الحبوس التى تضيق على محبوسها ، فوقع الفتح عقيب مجيئهم ليتطابق بذلك اللفظ والمعنى ، ولم يكن هناك حذف ، وأما الجنة فلأن من فيها يتشوقون للقاء أهلها ، ومن رسم المنازل إذا بشر من فيها بإتيان أربابها إليها أن تفتح أبوابها استبشارا بهم وتطلعا إليهم ، ويكون ذلك قبل مجيئهم ، فأخبر عن المؤمنين وحالهم على ما جرت به عادة الدنيا فى أمثالهم ، فيكون حذف الجزاء ، وإدخال الواو على الفعل المعطوف عليه لذلك (١) .

(١) ينظر غرة التنزيل ودرة التأويل للإسكافى ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

ثانيا : حرف الفاء

ولها ثلاثة مواضع : العطف ، والجواب ، والزيادة .

فالعطف نحو قولك : رأيت زيدا فعمراً وهى تدل على الترتيب والتعقيب أى : أن الثانى وهو المعطوف بعد الأول وهو المعطوف عليه بلا مهملة .

والجواب وتكون على ضربين : أحدهما أن ينتصب الفعل بعدها على إضمار أن ، وذلك فى ستة مواضع وهى الاستفهام ، والأمر ، والنهى والتمنى ، والجحد ، والعرض وإنما احتيج إلى اضمار أن ها هنا لتكون مع الفعل مصدراً فنعطف مصدر الفعل الأول لمخالفته إياه ، وذلك أن العطف إنما يحسن إذا كان الثانى موافقا للأول ، فإذا قلت : « أين بيتك فأزورك » كان التقدير ليكن معك إخبار بمكان بيتك وزيارة منى وكذلك جميعه يخرج على هذا التقدير.

وأما ما يستأنف فيه الكلام فالشرط ، وذلك نحو قولك : إن تقصدنى فأكرمك ومن جاءنى فأحسن إليه . قال تعالى ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ (١).

وأما مجيئها زائدة فنحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ (٢). والمعنى : إن الموت الذى تفرون منه إنه

---

(١) سورة المائدة الآية (٩٥) . (٢) سورة الجمعة الآية (٨) .

ملاقيكم ؛ لأن الكلام لا وجه للجزاء فيه ؛ لأن الموت فروا منه أو لم يفروا يلاقيهم ، هذا هو الظاهر .

ويجوز أن يكون فى الكلام معنى الشرط ، كأنهم ظنوا أن الفرار من الموت ينجيهم . ومما جاءت زائدة قول النمر بن تولب :

لا تجزعى إن منفسا أهلكته وإذا هلكت فعند ذلك فاجزعى

لابد أن تكون إحدى الفاءين زائدة ؛ لأن إذا إنما تقتضى جواباً واحداً [1] .

فالفاء كما هو واضح تأتى عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب ، وتأتى فى جواب الشرط ، وتأتى زائدة . وهذه استعمالاتها النحوية إلا أنه قد تفيد معان أخرى مع هذه الإستعمالات يقتضيها المقام ، وسياق الكلام .

وقد أشار عبد القاهر إلى الفاء وحسن موقعها ، ولكنه كان يبسط فكرة عامة تكون هذه الفاء إحدى صورها الجزئية ، وهذه الفكرة تعنى أن معانى النحو لا تحسن فى كل موضوع تقع فيه ، وإنما تحسن حيث تصيب موقعها الأشكل بها ، وأن هذه المعانى كالأصباغ يهتدى صانعها إلى مقاديرها وكيفية مزجها وتخير مواضعها ، لهذا يكون نقش أعجب من نقش، وصورة أغرب من صورة ، وعلى هذا الأساس تنظر فى الشعر لتعرف مدى إصابة الشاعر فى استخدام معانى النحو ، فمن الشعراء من تقع الإصابة فى معانيه كالأصباغ المتفرقة تتلاحق وينضم بعضها إلى

(١) ينظر معانى الحروف للرمانى ص ٤٣ ـ ٤٦ بتصرف . ومغنى اللبيب لابن هشام ص ١٣٩ ـ ١٤٤ .

بعض حتى تكثر فى العين ... وللحكم على هذا الشاعر بالإصابة والحذق ينبغى أن تتابع عدة أبيات حتى تجمع هذه المحاسن وتملأ العين منها ... ومن الشعراء من تفاجئك قدراته ، وفحولته فترى الحسن يهجم عليك دفعة ويأتيك منه ما يملأ العين غرابة فتعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل [١].

ثم يقول فى معنى الفاء « ثم إنك تحتاج إلى أن تستقرىء عدة قصائد بل أن تفلىَ [٢]. ديوانا من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات ، وذلك ما كان مثل قول الأول [٣].وتمثل به أبو بكر الصديق رضوان الله عليه حين أتاه كتاب خالد بالفتح فى هزيمة الأعاجم :

تمنانا ليلقانا بقوم تخال بياض لأمهم [٤].السرابا
فقد لاقيتنا فرأيت حرباً عوانا تمنع الشيخ الشرابا

أنظر إلى موضع الفاء فى قوله : « فقد لا قيتنا فرأيت حرباً »

ومثل قول العباس بن الأحنف :

قالوا :

خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

انظر إلى موضع الفاء و« ثم » قبلها » [٥].

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز ص ١٢٨ ، ١٢٩ بتصرف وانظر البلاغة فى تفسير الزمخشرى للدكتور محمد أبو موسى ص ٢٨٣ .
(٢) تفلىَ من فَلَّ الأمر إذا بحثه بحثاً شديداً .
(٣) الشاعر المتقدم .
(٤) جمع لأمة وهى الدرع .
(٥) ينظر دلائل الإعجاز ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

وفيما يلى أمثلة لاستعمالات الفاء فى القرآن الكريم نستشف منها ما تفيده من أسرار ولطائف .

١ـ قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

ومعنى الآية : يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم محمد ﷺ يوضح لكم شرائع الدين على انقطاع من الرسل ودروس من الدين ، وكانت الفترة بين سيدنا عيسى وسيدنا محمد ومدتها خمسمائة وستون سنة لم يبعث فيها رسول ﴿ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ أى : لئلا تحتجوا وتقولوا : ما جاءنا من رسول يبشر بالخير ، وينذر من الشر ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ هو محمد ﷺ ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : قادر على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه (٢).

والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ هى فاء الفصيحة . أى : لا تعتذروا فقد جاءكم بشير ونذير ، وقد ظهر حسن موقعها لما فيها من معنى التعليل ، أى لأن قلتم ذلك فقد بطل قولكم إذ قد جاءكم بشير ونذير .

قال الزمخشرى : « فقد جاءكم » متعلق بمحذوف أى : لا تعتذروا فقد جاءكم ... والمعنى الإمتنان عليهم ، وأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحى ، أحوج ما يكون إليه ليهشوا إليه ويعدوه أعظم نعمة

(١) سورة المائدة الآية (١٩) .
(٢) ينظر صفوة التفاسير القسم ٣ ص ١٤.

من الله ، وفتح باب الرحمة ، وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم عن غفلتهم (١).

٢ـ قال تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ (٢).

ومعنى الآية : فقد كذبكم هؤلاء المعبودون فى قولكم إنهم آلهه ، فما تستطيعون أيها الكفار دفعا للعذاب عنكم ، ولا نصراً لأنفسكم من هذا البلاء ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ أى : ومن يشرك منكم بالله فيظلم نفسه نذقه عذاباً شديداً فى الآخرة (٣).

وقال أبو السعود فى تفسيره لهذه الآية الكريمة: قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب، وصرفه عن المعبودين عند تمام جوابهم، وتوجيهه إلى العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب . أى: فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى : فى قولكم أنهم آلهة ... وقرىء بالياء. أى كذبوكم بقولهم : سبحانك الآية ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى : ما تملكون ﴿ صَرْفًا ﴾ أى : دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير. أى: لا بالذات ولا بالواسطة ﴿ وَلا نَصْرًا ﴾ أى : فردا من أفراد النصر ، لا من جهة أنفسكم ، ولا من جهة غيركم ، والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب ، لكن لا

(١) ينظر الكشاف حـ ١ ص ٣٣٠ وفتح القدير حـ ٢ ص ٢٥.
(٢) سورة الفرقان الآية (١٩) . (٣) ينظر صفوة التفاسير القسم ١٠ ص ٣٩.

على معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة ، بل فى زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب ، أو يحتالوا لكم ، ولا أن ينصروكم ، وترتب ما بعد الفاء على ما قبلها ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ أيها المكلفون كدأب هؤلاء حيث ركبوا متن المكابرة والعناد ، واستمروا على ما هم عليه من الفساد وتجاوزوا فى اللجاج كل حد معتاد ﴿ نُذِقْهُ ﴾ فى الآخرة ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ لا يقادر قدره ، وهو عذاب النار ، وقرىء يذقه على أن الضمير لله سبحانه وتعالى .. وتعميم الظلم لا يستلزم اشتراك الفاسق للكافر فى إذاقة العذاب الكبير ، فإن الشرط فى اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا ، وهو التوبة والاحباط بالطاعة اجماعا ، وبالعفو عندنا (١).

والفاء فى قوله تعالى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ فاء الفصيحة أفادت المفاجأة بالاحتجاج والإلزام وهى حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول .

قال صاحب التحرير والتنوير : الفاء فصيحة ، أى إفصاح عن حجة بعد تهيئة ما يقتضيها ، وهو إفصاح رائع ، وزاده الإلتفات فى قوله ﴿ كَذَّبُوكُم ﴾ وفى الكلام حذف فعل قول يدل عليه المقام ، والتقدير : إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم ، وقد جاء التصريح بما يدل على القول المحذوف فى قول عباس بن الأحنف :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا   ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أى : إن قلتم ذلك فقد جئنا خراسان . وفى حذف فعل القول فى

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٨٤ بتصرف .

هذه الآية استحضار لصورة المقام كأنه مشاهد غير محكى ، وكأن السامع آخر الآية قد سمع لهذه المحاورة مباشرة دون حكاية ، فقرع سمعه شهادة الأصنام عليهم ، ثم قرع سمعه توجه خطاب التكذيب إلى المشهود عليهم ، وهو تفنن بديع فى الحكاية يعتمد على تخييل المحكى واقعاً .. فجملة ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ الخ مستأنفة ابتدائية هو إقبال على خطاب الحاضرين ، وهو ضرب من الإلتفات مثل قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ [1]. بعد قوله تعالى ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ ... وفرع على الإعلان بتكذيبهم إياهم تأييسهم من الانتفاع بهم فى ذلك الموقف ، إذ بين لهم أنهم لا يستطيعون صرفاً . أى : صرف ضر عنهم ، ولا نصراً ، أى : إلحاق ضر بمن يغلبهم ، ووجه التفريع ما دل عليه قولهم : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ الذى يقتضى أنهم فى موقف العبودية والخضوع [2].

فالفاء فى موقعها قد أفادت من الأسرار واللطائف ـ كما رأينا ـ الكثير حيث جاءت فى موضعها المناسب فى قمة البلاغة .

٣ـ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[3] .

قال أبو السعود فى معنى الآية : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ ﴾ فى الدنيا من الملائكة والإنس ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ فى علمه أو قضائه أو ما كتبه وعينه أوفى اللوح أو القرآن ، وهو قوله تعالى :

(١) سورة يوسف الآية (٢٩) .

(٢) ينظر التحرير والتنوير حـ ٧ ص ٣٤١ ، ٣٤٢.

(٣) سورة الروم الآية (٥٦) .

﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ ﴾ ، ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ ردوا بذلك ما قالوه وأيدوه باليمين كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود الذى كانوا ينكرونه ، وكانوا يسمعون أنه يكون بعد فناء الخلق كافة ، ويقدرون لذلك زمانا مديدا، وإن لم يعتقدوا تحققه فرد العالمون مقالتهم ونبهوهم على أنهم لبثوا إلى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها ، وبكتوهم بالإخبار بوقوعها حيث قالوا ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ الذى كنتم توعدون فى الدنيا ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق فتستعجلون به استهزاء (١).

والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر قبلها . والتقدير : إذا كان كذلك فهذا يوم البعث ، وتفيد معنى المفاجأة كالفاء فى قول عياش بن الأحنف .

قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا　　ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وفى معنى المفاجأة هذا الذى أفادته الفاء توبيخ لهم وتهديد وتعجيل لإساءتهم بما يترقبهم من العذاب . والاقتصار على قوله ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ ليتوقعوا كل سوء وعذاب.

هذا وقد علق صاحب التحرير والتنوير على هذه الآية الكريمة بما يفصح عما تضمنته من لطائف وأسرار بلاغية تنبىء عن إعجاز كلامه سبحانه وتعالى فقال : جعل الله منكرى البعث هدفا لسهام التغليظ والإفتضاح فى وقت النشور ، فلما سمع المؤمنون الذين أوتوا علم القرآن وأشرقت عقولهم فى الحياة الدنيا بالعقائد الصحيحة وآثار الحكمة لم يتمالكوا

(١) ينظر تفسير أبى السعود جـ ٣ ص ١٨٧ .

أن لا يردوا عليهم غلطهم ردا يكون عليهم حسرات أن لا يكونوا قبلوا دعوة الحق كما قبلها المؤمنون ، وهذه الجملة معترضة ، وعطف الإيمان على العلم للإهتمام به لأن العلم بدون إيمان لا يرشد إلى العقائد الحق التى بها الفوز فى الحياة الآخرة ، والمعنى : وقال لهم المؤمنون إنكاراً عليهم وتحسيراً لهم .

والظاهر أن المؤمنين يسمعون تحاجَّ المشركين بعضهم مع بعض ، فيبادرون بالإنكار عليهم لأن تغيير المنكر سجيتهم التى كانوا عليها . وفى هذا أدب إسلامى وهو أن الذى يسمع الخطأ فى الدين والإيمان لا يقره ولو لم يكن هو المخاطب به .

وقولهم : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ صرف لهم عن تلك المعذرة كأنهم يقولون : دعوا عنكم هذا فلا جدوى فيه واشتغلوا بالمقصود ، وما وُعدتم به من العذاب يوم البعث .

وفعل ﴿ لَبِثْتُمْ ﴾ مستعمل فى حقيقته ، أى مكثتم ، أى : استقررتم فى القبور ، والخبر مستعمل فى التحزين والترويع باعتبار ما يرد بعده من الإفصاح عن حضور وقت عذابهم .... وفى التعبير بنفى العلم . وقصد نفى الاهتمام به والعناية بتلقيه إشارة إلى أن التصدى للتعلّم وسيلة لحصوله[١] .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ١٠ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

ثالثا : العطف « بثم »

قال ابن هشام وهى حرف عطف يقتضى ثلاثة أمور التشريك فى الحكم ، والترتيب ، والمهملة . أى : التراخى نحو قولك : قام زيد ثم عمرو ، والمعنى : أن عمراً قام بعد زيد وبينهما مهملة (١).

وإليك بعض الآيات التى ورد فيها هذا الحرف وأفاد فى موضعه نكات ولطائف بلاغية .

١ـ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (٢).

تتحدث هاتان الآيتان عن بعض جرائم اليهود فقد نقضوا الميثاق الذى أخذ عليهم فى التوراة ، وقتلوا النفس التى حرم الله ، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل ، واعتدوا على إخوانهم فى الدين فأخرجوهم من الديار ، فاستحقوا اللعنة والخزى والدمار .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ ... الخ معناه : واذكروا يا بنى إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضا ، ولا يعتدى بعضكم على بعض بالإخراج من الديار ، والإجلاء عن الأوطان ، ثم اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه ،

---

(١) ينظر معانى الحروف للرمانى ص (١٠٥) والمغنى اللبيب جـ ١ ص (١٠٦) .
(٢) سورة البقرة الآيتان (٨٤ ، ٨٥).

وأنتم تشهدون بلزومه ، ثم نقضتم أيضا الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به . فقتلتم إخوانكم فى الدين . وارتكبتم ما نهيتكم عنه من القتل [١].

والذى يستوقفنا هو العطف بثم فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ حيث أفادت هنا الإستبعاد فى الوقوع . أى استبعاد أن يقع منهم قتل لأنفسهم بعد أن أخذ الله منهم الميثاق أن لا يفعلوا ذلك ، لا التراخى فى الزمان الذى وضعت له فى الأصل . كما أفاد العطف بها أيضا توبيخهم وزجرهم ، وبيان قبيح فعلهم ، وكأن الله سبحانه يريد أن يقول لهم : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا ذلك فأنتم لا تعقلون.

يقول صاحب الكشاف : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ ﴾ استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم ، وإقرارهم وشهادتهم[٢] .

٢- قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ [٣].

عند قوله تعالى:﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ نتساءل ونقول لماذا عطف بثم ورفع الفعل، ولم يقل « ولا ينصروا » بواو العطف وجزم الفعل عطفا على جواب الشرط ﴿ يُوَلُّوكُمُ ﴾ وأى فائدة

---

(١) ينظر صفوة التفاسير القسم الأول ص ٦٠ ، ٦١ .
(٢) ينظر الكشاف حـ ١ ص ٧٩ .
(٣) سورة آل عمران الآية (١١٠ ، ١١١).

أفادها العطف بثم ورفع الفعل الواقع بعدها ؟

والجواب على ذلك : هو أن الله سبحانه وتعالى يخبر نبيه بأن الكثرة الكثيرة الفاسقة والخارجة عن طاعة الله تعالى من أهل الكتاب لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً بألسنتهم من سب وطعن ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، أى ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئا ، ثم شأنهم الذى أبشركم به أنهم مخذلون لا ينصرون عليكم .

فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ احتراس (١) . وهو لون رفيع من ألوان البلاغة أفاد هنا دوام الغلبة والنصر للمؤمنين ، والهزيمة والخذلان لغير المؤمنين من أهل الكتاب . ولو قال الله تعالى « ولا ينصرون » وعطف بالواو لظن قصار النظر أنهم إنما وعدوا بالنصر تلك الحالة ليس غير ، فدفع هذا الظن بكلمة « ثم » التى تقطع قطعا لا يرين عليه الشك ، بأن النتيجة الحتمية هى النصر المؤزر للمؤمنين ، خشية أن يظن بعض الذين لا يحبون المسارعة إلى الموت بأن الوعد بالنصر فى تلك الحالة فقط ، وأن الحرب قد تكون سجالاً ، وأنه قد يأتى دورهم بالنصر ، فنفى سبحانه وتعالى هذا الاحتمال ، وقطع على هؤلاء الظانين الطريق لالتماس المعاذير للتخلف عن الجهاد (٢) .

---

(١) الاحتراس : هو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم . ووجه تسميته بالاحتراس : هو أن حرس الشيء حفظه . وهذا النوع فيه حفظ للمعنى ووقاية له من توهم خلاف المقصود . ينظر . الإيضاح للخطيب القزوينى ص ٣١٠ شرح وتعليق وتنقيح أ د / محمد عبد المنعم خفاجى دار الكتب اللبنانى وشروح التلخيص حـ ٣ ص ٢٣١ .

(٢) ينظر : إعراب القرآن وبيانه تأليف الأستاذ محيى الدين الدرويش حـ ٢ ص ٢٦ .

قال صاحب الكشاف [١]. ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ إلا ضرراً متقصراً على أذى بقول من طعن فى الدين أو تهديداً ، ونحو ذلك ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ﴾ منهزمين ، ولا يضروكم بقتل أو أسر ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ، ولا يمنعون منكم ؛ وفيه تثبيت لمن أسلم منهم ؛ لأنهم كانوا يؤذونهم بالتلهى بهم وتوبيخهم وتضليلهم ، وتهديدهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والإنتقام منهم ؛ وإنّ عاقبة أمرهم الخذلان والذلّ ، فإن قلت ، هلا جزم المعطوف فى قوله : ثم لا ينصرون. قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون . فإن قلت فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى؟ قلت : لو جزم لكان نفى النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفى النصر وعداً مطلقا ، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها ، وأبشركم بها بعد التولية إنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوّة ، لا ينهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر : فإن قلت : فما الذى عطف عليه هذا الخبر ؟ قتل : جملة الشرط والجزاء ، كأنه قيل أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ثم أخبركم أنهم لا ينصرون فإن قلت : فما معنى التراخى فى ثم ؟ قلت : التراخى فى المرتبة ؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى ، الزمخشرى جار الله أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب ، كان معتزلى المذهب توفى سنة ٥٣٨ هـ انظر ترجمته فى الإنساب للسمعانى الورقة (٢٧٧) ومعجم البلدان فى مادة زمخشر ، ومعجم الأدباء حـ ١٩ ص ١٢٦ .

أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار» (١).

ويقول صاحب كتاب الانتصاف (٢). فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال عن قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ هذا من الترقى فى الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى لأنهم وُعدوا بتولية الأدبار عند المقابلة ، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم فى النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقا ، ويزيد هذا الترقى بدخول ثم دون الواو ، فإنها تستعار ههنا للتراخى فى الرتبة ، لا فى الوجود ، كأنه قال : ثم ههنا ما هو أعلى فى الإمتنان ، وأسمع فى رتب الإحسان ، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون ألبتة » (٣).

فالمتأمل فى سياق الآية الكريمة ، وما أفاده حرف العطف « ثم » من لطائف وإشارات يدرك عظمة الأسلوب القرآنى ، وبلاغة إعجازه ، فما أبلغ الإيجاز والإعجاز فى كلام رب العالمين .

٣ـ قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴾ (٤).

قال أبو السعود وقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ شروع فى قدحهم فى نبوته عليه السلام صريحا بعد ما أشير إلى قدحهم فيها ضمنا . وقيل هو معطوف على جواب لو وليس بذاك ، لما أن تلك المقالة الشنعاء ليس مما يقدر صدوره عنهم على تقدير تنزيل الكتاب

(١) ينظر الكشاف حـ ١ ص ٢١٠ دار المعرفة بيروت . لبنان.
(٢) هو الإمام ناصر الدين أحمد ابن المنير الاسكندرى المالكى .
(٣) ينظر كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال ص ٢١٠ بذيل الكشاف حـ١ .
(٤) سورة الأنعام الآية (٨).

المذكور بل هى من أباطيلهم المحققة ، وخرافاتهم الملفقة التى يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل ، وعيت بهم العلل ، أى : هلا أنزل عليه الصلاة والسلام ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبى حسبما نقل عنهم فيما روى عن الكلبى ومقاتل . ونظيره قولهم لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً .

ولما كان مدار هذا الإقتراح على شيئين : إنزال الملك على صورته ، وجعله معه ﷺ يحدث الناس عنه وينذرهم . أجيب عنه بأن ذلك مما لا يكاد يوجد لاشتماله على المتباينين ؛ فإن إنزال الملك على صورته يقتضى انتفاء جعله محدثا ونذيراً ، وجعله محدثا ونذيراً يستدعى عدم إنزاله على صورته لا محالة وقد أشير إلى الأول بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أى : لو أنزلنا ملكا على هيئته فيه من ضعف القوى وعدم اللياقة . ثم لا يمهلون بعد إنزاله ومشاهدتهم له طرفة عين فضلا عن أن يحظوا منه بكلمة ، أو يزيلوا به شبهة(١) .

هذا وقد اشتملت الآية الكريمة على لطائف عظيمة . منها

أن كلمة « لولا » فى قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلا ﴾ للتحضيض ، والمقصود به التوبيخ على عدم الإتيان بملك يشاهد معه حتى تنتفى الشبهة بزعمهم . وقيل : التحضيض مستعمل فى التعجيز على حسب إعتقادهم (٢) .

وأن بناء الفعل الأول فى الجواب للفاعل مسندا إلى نون العظمة - ولو أنزلنا - مع كونه فى السؤال مبنيا للمفعول - وقالوا لولا أنزل - أفاد تهويل الأمر وتربية المهابة ، وبناء الثانى للمفعول - ثم لا ينظرون - للجرى على

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود حـ ١ ص ٨٣ ، ٨٤ ، وتفسير الألوسى حـ ٥ ص ٢١٧ .
(٢) ينظر التحرير والتنوير حـ ٤ ص ١٤٣ .

سنن الكبرياء .

وفى قوله تعالى : ﴿ لَّقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ فيه إيجاز بليغ ؛ فاللام عوض عن المضاف إليه بقرينة السياق . أى : لقضى أمر عذابهم الذى يتهددهم به (١).

وقد أفادت كلمة « ثم » فى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴾ التنبيه على تفاوت ما بين قضاء الأمر ، وعدم الانظار فإن مفاجأة العذاب أشد من نفس العذاب وأشق ، لا الترتيب والتراخى الذى هو معناها الحقيقى .

قال الزمخشرى : « معنى ثم بعد ما بين الأمرين ؛ قضاء الأمر ، وعدم الإنظار جعل عدم الأنظار أشد من قضاء الأمر ؛ لأن مفاجأة الشدة من نفس الشدة (٢). قال صاحب الإنتصاف وهذه النكتة من محاسن تنبيهاته(٣).

٤- قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤).

وقال أيضا : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٥).

وقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِين

---

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٤ ص ١٤٣ . (٢) ينظر الكشاف جـ ٢ ص ٥ .
(٣) ينظر الإنتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال على الكشاف جـ ٢ ص ٥ .
(٤) سورة الأنعام الآية (١١) . (٥) سورة النمل الآية (٦٩) .

مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ (١).

هذه الآيات خطاب لسيد المخاطبين ﷺ بإنذار قومه وتذكيرهم بأحوال الأمم الخالية ، وما حاق بهم لسوء أفاعلهم ، تحذيرا لهم عما هم عليه ، مما يحاكى تلك الأفعال . كما أن هذه الآيات كما يقول الشيخ سيد قطب ترمى إلى غرضين ظاهرين :

الأول : تسلية رسول الله ﷺ والتسرية عنه ، مما يلقاه من عناد المعرضين ، وعنت المكذبين ، وتطمين قلبه - ﷺ - إلى سنة الله سبحانه فى أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل ، وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعًا فى تاريخ الدعوة إلى الحق ، فقد لقى مثله الرسل قبله وقد لقى المستهزئون جزاء هم الحق ، وحاق بهم ما كانوا يتسهزئون به من العذاب ، ومن غلبة الحق على الباطل فى نهاية المطاف.

والثانى : لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين ، وتذكيرهم بهذه المصارع التى تنتظرهم إن هم لجوا فى الإستهزاء والسخرية والتكذيب ، وقد أخذ الله - منْ قبلهم - قروناً كانت أشد منهم قوة وتمكيناً فى الأرض ، وأكثر منهم ثراء ورخاء ، كما قال لهم فى مطلع هذه الموجة ، التى ترج القلوب رجًا بهذه اللفتات الواقعية المخيفة (٢).

والذى يستوقفنا عندما نقرأ هذه الآيات ويدعو إلى التأمل والبحث والدراسة هو تخصيص العطف « بثم » التى تفيد الترتيب والتراخى فى الآية الأولى ﴿ ثُمَّ انظُرُوا ﴾ والعطف « بالفاء » التى تفيد الترتيب والتعقيب فى الآيات الأخرى ﴿ فَانظُرُوا﴾ .

(١) سورة الروم الآية (٤٢) . (٢) فى ظلال القرآن جـ ١ ص ١٠٤٥ .

والذى يمكن أن يقال هنا كما أشار الإسكافى: إن قوله تعالى :﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾ يدل على أن السير يؤدى إلى النظر فيقع بوقوعه ، وليس كذلك ثم ؛ ألا ترى أن الفاء وقعت فى الجزاء ، ولم تقع فيه ثم ؛ فقوله فى سورة الأنعام ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ﴾ لم يجعل النظر فيه واقعا عقيب السير متعلقا وجوده بوجوده ، لأنه بعث على سير بعد سير لما تقدم من الآية التى تدل على أنه تعالى حداهم على استقراء البلاد ، ومنازل أهل الفساد ، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثراً بعد أثر فى ديار بعد ديار ، قد عم أهلها بدمار ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ ثم قال ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ثم ذكر فى قوله ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ يعنى قرونا كثيرة قبلهم أهلكناهم ، ثم قال ﴿ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ فدعا إلى العلم بذلك بالسير فى البلاد ، ومشاهدة هذه الآثار ، وفى ذلك ذهاب أزمنة كثيرة ومُدَد طويلة ، تمنع النظر من ملاصقة السير ، كما قال فى المواضع الأُخَر التى دخلتها الفاء لما قصد من معنى التعقيب ، واتصال النظر بالسير ؛ إذ ليس فى شىء من الأماكن التى استعملت فيها الفاء ما فى هذا المكان من البعث على استقراء الديار ، وتأمل الآثار ؛ فجعل السير فى الأرض فى هذا الموضع مأموراً به على حدة ، والنظر بعده مأموراً به على حدة . وسائر الأماكن التى دخلتها الفاء علق فيها وقع النظر بوقوع السير ؛ لأنه لم يتقدم الآية ما يحدو على السير الذى حدا عليه فيما قبل هذه الأية ؛ فلذلك خصت بثم

التى تفيد تراخى المهلة بين الفعلين (١).

ويقول الزمخشرى : (فإن قلت : أى فرق بين قوله : ﴿ فَانظُرُوا ﴾ وبين قوله : ﴿ ثُمَّ انظُرُوا ﴾ قلت : جعل النظر مسببا عن السير فى قوله: ﴿فَانظُرُوا﴾ فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر ، ولا تسير سير الغافلين . وأما قوله : ﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ﴾ فمعناه إباحة السير فى الأرض للتجارة وغيرهما من المنافع ، وإيجاب النظر فى آثار الهالكين ، ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح) (٢).

فتأمل النسق القرآنى الكريم ، وما توحى به كلماته ، وما تحمله من لطائف وتنبيهات ، تفصح عن دقائق وأسرار تدل على إعجازه وبلاغته . كيف لا . وقد أدى التعبير بالحرف « ثم » فى موضعه من المعانى والإيحاءات ما لم يؤده مكانه حرف آخر . وكذلك جاءت « الفاء » فى موضعها المناسب . ولم يغن عنها فى مكانها حرف أخر.

٥- قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣).

قوله تعالى ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ استئناف لبيان توليهم فى قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى هم يعرفون نعمة الله التى عدّدها ، ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة ،

(١) ينظر : درة التنزيل وغرة التأويل ص ٩٣ ، ٩٤. (٢) ينظر الكشاف جـ ٢ ص ٥.
(٣) سورة النحل الآية (٨٣).

حيث يقولون هى من الله ولكنها بشفاعة الأصنام ، وحيث يقولون إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم ، وأيضا كونهم لا يستعملون هذه النعم فى مرضاة الرب سبحانه ، وفى وجوه الخير التى أمرهم الله بصرفها فيها ، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أى : الجاحدون لنعم الله ، أو الكافرون بالله (١) .

وقال السُّدى : نعمة الله هى محمد ﷺ عرفوا نبوته بالمعجزات كما يعرفون أبناءهم ثم جحدوها وكذبوه عنادا (٢) .

وفى الآية من التنبيهات والإشارات ما يلفت النظر ويدعو إلى التأمل .

ففى قوله تعالى ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ استئناف بيانى ؛ لأن توليهم عن الإسلام مع وفرة أسباب اتباعه يثير سؤالا فى نفس السامع : كيف خفيت عليهم دلائل الإسلام ؟ فيجاب بأنهم عرفوا نعمة الله ولكنهم أعرضوا عنها إنكارا ومكابرة (٣) .

وفى إسناد الفعل «يعرفون» والفعل «ينكرون» المتفرع عليها إلى ضمير المشركين على الإطلاق من باب إسناد حال البعض إلى الكل كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا ، وإنما القاتل واحد منهم ، لأن بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ففيه مجاز مرسل علاقته

---

(١) ينظر فتح القدير جـ٣ ص ١٨٥ .
(٢) ينظر تفسير أبى السعود جـ ٣ ص ١٨٨ وينظر صفوة التفاسير القسم السابع ص ٣٧ .
(٣) ينظر التحرير والتنوير جـ ٧ ص ٢٤٢ .

الكلية من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء [١].

وفى قوله تعالى : ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ إشارة إلى أن بعضهم يهتدى للإسلام ، وأما أكثرهم فمصرّون على الكفر والضلال [٢].

والذى يهمنا هنا ما أفاده العطف بثم فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ فقد أفادت استبعاد انكارهم نعم الله عليهم وعدم إيمانهم بمنعهما بعد المعرفة وتبينهم أنها من عند الله ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يصفهم بالغباء والعناد والصلف عن الحق ويعنتهم على إعراضهم عن الإيمان بعد إقامة الحجة والدليل على وجوب الإيمان به سبحانه ، والإقرار أنه المنعم .

يقول صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى ثم ؟ قلت : الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة ؛ لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر[٣].

٦ـ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [٤].

هذه الآية الكريمة بيان إجمالى لحال من قابل آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد [٥].

ومعنى الآية : لا أحد أظلم لنفسه ممن وُعِظ وذُكِّر بآيات الرحمن،

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود حـ ٣ ص ١٨٨ بتصرف .
(٢) ينظر صفوة التفاسير للصابونى القسم السابع ص ٣٧.
(٣) ينظر الكشاف حـ ٢ ص ٣٤٠.
(٤) سورة السجدة الآية (٢٢) .
(٥) ينظر تفسير أبى السعود حـ ٣ ص ٣٠٠.

ثم ترك الإيمان وتناساها ؟ ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أى : سأنتقم ممن كذّب بآياتى أشد إنتقام.

وقد جيء فى عطف جملة (أعرض) بحرف (ثم) لقصد الدلالة على تراخى رتبة الإعراض عن الآيات بعد التذكير بها تراخى استبعاد وتعجب من حالهم لوضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين .

فالعطف بثم أفاد إستبعاد إعراضهم عن آيات الله الواضحة وعدم إيمانهم بها ، والتعجب من حالهم بعد أن ذكروا بها وإنكار ذلك عليهم .

قال الزمخشرى : (ثم) فى قوله ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ للاستبعاد . والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله فى وضوحها وإنارتها ، وإرشادها إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الإنتهاز .

ومنه ثم فى بيت الحماسة

لا يكشف الغماء إلا ابن حرّة   يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآهاواستيقنها ، واطلع على شدتها [(١)].

وفى الآيات لطائف بلاغية منها :

أن (من) فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ

(١) ينظر الكشاف حـ ٣ ص ٢٢٣.

أعْرَضَ عَنْهَا ﴾ للإستفهام الإنكارى . أى : لا أحد أظلم منه لأنه ظلم نفسه بحرمانها من التأمل فيما فيه نفعه وظلم الآيات بتعطيل نفعها فى بعض من أريد انتفاعهم بها ، وظلم الرسول عليه الصلاة والسلام بتكذيبه والإعراض عنه ، وظلم حق ربه إذ لم يتمثل ما أراد منه (١).

وجملة : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن تفظيع ظلم الذى ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ؛ لأن السامع يترقب جزاء ذلك الظالم(٢).

والمراد بالمجرمين هؤلاء الظالمون ، عدل عن ذكر ضميرهم لزيادة تسجيل فظاعة حالهم بأنهم مجرمون مع أنهم ظالمون فهو من وضع الظاهر موضع المضمر.

وقال الزمخشرى : فإن قلت : هلا قيل إنا منهم منتقمون . قلت لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالإنتقام منهم فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الإنتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة (٣).

٧ـ قال تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ (٤).

---

(١) ينظر التحرير والتنوير حـ ١٠ ص ٢٣٤.
(٢) ينظر التحرير والتنوير حـ ١٠ ص ٢٣٤.
(٣) ينظر الكشاف حـ ٣ ص ٢٢٣.
(٤) سورة الزمر الآية (٦).

هذه الآية الكريمة بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على وجوده وقدرته ووحدانيته، حيث ذكر قبليا أدلة أخرى على ذلك.

فقد تحدثت الآية عن خلق الناس وهو الخلق العجيب . وأدمج فيه الإستدلال بخلق أصليهم آدم وهو نفس واحدة تشعب منها عدد عظيم ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وبخلق زوج آدم ليتقوم ناموس التناسل ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ .

وبذلك تضمن قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ثلاثة أدلة على عظم قدرة الله : خلق الناس من ذكر وأنثى بالأصالة ، وخلق الذكر الأول بالإدماج ، وخلق الأنثى بالأصالة أيضا (١).

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ استدلال بما خلقه الله تعالى من الأنعام عطف على الاستدلال بخلق الإنسان ؛ لأن المخاطبين بالقرآن يومئذ قوام حياتهم بالأنعام ، ولا تخلو الأمم يومئذ من الحاجة إلى الأنعام ، ولم تزل الحاجة إلى الأنعام حافة بالبشر في قوام حياتهم .

والمعنى : وأوجد لكم من الأنعام المأكولة وهي ـ الإبل ـ والبقر ـ والغنم ـ والمعز اثنين كل واحد زوج ، وسميت أزواجًا لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر (٢).

قال الصابوني قال المفسرون : والإنزال عبارة عن نزول أمره

(١) ينظر التحرير والتنوير حـ ١١ ص ٣٣١. (٢) ينظر تفسير الطبري حـ ٢٣ ص ١٣٤.

وقضائه (١).

وقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ أى : يخلقكم فى بطون أمهاتكم أطواراً ، فإن الإنسان يكون نطفة ، ثم عقلة ، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه ، ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر ، فى ظلمات ثلاث ، هى ظلمة البطن ، والرحم والمشيمة وهو الكيس الذى يغلف الجنين (٢).

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أى : ذلكم الخالق المبدع المصور هو الله رب العالمين ، له الملك والتصرف التام ، فى الإيجاد والإعدام لا معبود بحق إلا الله ولا رب لكم سواه ، فكيف تنصرفون عن عبادته إلى غيره .

والذى يدعو إلى التساؤل ويحتاج إلى التأمل هو العطف ، بثم ، وما أفاده هذا الحرف فى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ .

قال الزمخشرى : فإن قلت ما وجه قوله ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وما يعطيه من معنى التراخى (قلت) هما آيتان من جملة الآيات التى عددها دالا على وحدانيته وقدرته ، تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم ، وخلق حواء من قصيراه إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة ، والأخرى لم تجر بها العادة ، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل ، فكانت أدخل فى كونها آية ، وأجلب لعجب السامع ، فعطفها بثم على الآية

---

(١) ينظر صفوة التفاسير القسم ١٤ ص ٤٩ .

(٢) ينظر تفسير القرطبى حـ ١٥ ص ٢٣٥ .

للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية وتراضيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية ، فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود[١] .

وقال الشوكاني : والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم أدخل في كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة ، لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة في خلقه ، وخلقها على الصفة المذكورة لم تجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها [٢] .

وقد أشار صاحب التحرير والتنوير إلى علة العطف بثم وما أفاده العطف بها فقال : في هذه الجملة عطف قوله ﴿ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ بحرف « ثم » الدال على التراخي الرتبي ؛ لأن مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه ، فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى ، وخلق زوجه من نفسه دليلا آخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته ، فعطف بحرف « ثم » الدال في عطف الجمل على التراخي الرتبي إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها ، فكان خلق زوج آدم منه أدلّ على عظيم القدرة من خلق الناس من تلك النفس الواحدة ، ومن زوجها ، لأنه خلق لم تجر به عادة ، فكان ذلك الخلق أجلب لعجب السامع من خلق الناس فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن ، لأن زمن خلق زوج آدم سابق

(١) ينظر الكشاف حـ ٣ ص ٣٣٩ .
(٢) ينظر فتح القدير للشوكاني حـ ٤ ص ٤٥٠ .

على خلق الناس [١].

والذى يمكن أن يقال : أن العطف بثم فى الآية الكريمة أفاد البعد بين الأمرين : وإن كان الأمران من جنس واحد : تَشَعَّبُ هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم ، وخلق حواء من أسفل أضلاعه ، ولكن ما بعد « ثم » أعلى مرتبة فى هذا الجنس وأبلغ مما قبلها ، لأن الأمر الأول جعله الله عادة مستمرة ، والآخر لم تجر به عادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل ، فكانت أدخل فى كونها آية وأجلب لعجب السامع فالعطف بثم هنا كما نرى أفاد الترقى فى الإستدلال على وجود الله تعالى الخالق لهذه الكائنات وعلى عظيم قدرته التى لا حدود لها . هذا الإله الخالق هو أحق بالعبادة والإيمان بوجوده وتقواه.

وفى الآية الكريمة أسرار ولطائف أخرى منها .

أن قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ اعتراض بين قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وبين قوله تعالى ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ فيه مناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة وهما الذكر والأنثى.

كما أفاد مجيء هذا الاعتراض هنا الامتنان على الناس لما فيها من المنافع لهم لما دل عليه قوله تعالى « لكم » لأن فى الأنعام مواد عظيمة لبقاء الإنسان .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير جـ ١١ ص ٣٣١ .

والإنزال : يجوز أن يكون على حقيقته وهو نقل الجسم من علو إلى سُفل ، ويكون المعنى : وأنزل لكم أصول الأنعام من سفينة نوح عليه السلام ، قال تعالى ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (١) . فيكون الإنزال هو الإهباط قال تعالى ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (٢) .

ويجوز أن يكون الإنزال بمعنى تذليل الأمر الصعب كما يقال : نزلوا على حكم فلان ، لأن الأمر الصعب يتخيل صعب المنال كالمعتصم بقمم الجبال .

قال خصّاب بن المعلى من شعراء الحماسة :

أنزلني الدهر على حكمه ... من شاهق علٍ إلى خفض

فإطلاق الإنزال هنا بهذا المعنى كناية عن تذليل الأنعام وتمكين الإنسان من الانتفاع بها .

والمعنيان حسنان ويجوز مرادهما معا من كلمة الإنزال هنا ولا تعارض بينهما .

والتعبير بصيغة المضارع فى قوله تعالى ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ لإفادة تجدد الحق وتكرره مع استحضار صورة هذا التطور العجيب استحضاراً بالوجه والإجمال الحاصل للإذهان على حسب اختلاف مراتب إدراكها .

---

(١) سورة هود : الآية (٤٠) .
(٢) سورة هود الآية (٤٨) .

وفي ذكر الظلمات في قوله تعالى : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ تنبيه على إحاطة علم الله تعالى بالأشياء ، ونفوذ قدرته تعالى في أشدّ ما تكون فيه من الخفاء.

وفي التعبير عنه سبحانه وتعالى باسم الإشارة في قوله تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ بعد أن أجرى على اسمه تعالى من الأخبار والصفات القاضية بأنه المتصرف في الأكوان كلها : جواهرها وأعراضها ، ظاهرها وخفيها ، ابتداء من قوله ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ والذي فيه ما يرشد العاقل إلى أنه المنفرد بالتصرف المستحق العبادة المنفرد بالإلهية تنبيه على أنه حقيق بما يرد بعده من أجل تلك التصرفات والصفات.

والإتيان باسمه العَلَم « الله » خبرا عن اسم الإشارة أفاد إحضار المسمى في الأذهان باسم مختص زيادة في البيان ؛ لأن المخاطبين نُزِّلوا منزلة حال من لم يعلم أن فاعل الأفعال العظيمة هو الله تعالى .

وفي وصف اسم الجلالة بالربوبية في قوله : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ تذكر لهم بنعمة الإيجاد والإمداد ، وهو معنى الربوبية ، ولتوطئة للتسجيل عليهم بكفران نعمته الآتي في قوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ .

وتقدم المجرور في قوله تعالى « له الملك » أفاد الحصر الإدعائي ، أي الملك لله لا لغيره وأما مُلك الملوك فهو لنقصه ، وتعرضه للزوال بمنزلة العدم .

وجملة ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وهى أسلوب قصر طريقه النفى والاستثناء من قصر صفة على موصوف . أى قصر صفة الألوهية على الله قصر حقيقى تحقيقى بيانٌ لجملة الحصر فى قوله تعالى ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُون ﴾ استفهام إنكارى عن انصرافهم عن توحيد الله تعالى بعد جلاء وبيان هذه الأدلة الدالة على وحدانيته .

والمصروف عنه هنا محذوف ، وهو توحيده تعالى بدليل قوله ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ ففيه إجاز بالحذف.

وقد عبر بالفعل المبنى للمجهول ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُون ﴾ دون المبنى للمعلوم ﴿ فَأَنَّىٰ تَصْرِفُون ﴾ لإفادة تحقيرهم ، ونعياً عليهم بأنهم كالمقُودين إلى الكفر غير المستقلين بأمورهم يصرفهم الصارفون من أئمة الكفر أو الشياطين الموسوسين لهم ، وإلهاب مشاعرهم ليكفوا عن امتثال أئمتهم الذين يقولون لهم ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ عسى أن ينظروا بأنفسهم فى دلائل الوحدانية المذكورة لهم .

والمضارع هنا مراد منه زمن المستقبل بقرينة تعريعه على ما قبله من الدلائل الآنفة (١).

---

(١) ينظر التحرير والتنوير حـ ١١ ص ٣٣٢ - ٣٣٦ بتصرف.

المبحث الثالث

من الأسرار البلاغية لإستعمالات

أدوات الشرط (إن ،وإذا ، ولو)

أدوات الشرط هى الأدوات التى تقتضى جملتين الجملة الأولى تسمى جملة الشرط ، والثانية تسمى جملة الجواب والجزاء نحو قوله تعالى ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ (١) فجملة ﴿ تُبْدُو ﴾ فعل الشرط ﴿ إن ﴾ وجملة ﴿ يُحَاسِبْكُم﴾ جواب الشرط وجزاؤه ، وكذا قوله تعالى ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (٢) ، فجملة ﴿ يَعْمَلْ﴾ فعل الشرط ، وجملة ﴿ يُجْزَ﴾ جواب الشرط وجزاؤه

ومنه قول الحطيئة من قصيدة يمدح فيها بغيض بن عامر :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

والشاهد منه قوله : « متى تأته .. تجد » ، حيث جزم بمتى فعلين أولهما قوله « تأته » ، وهو فعل الشرط ، والثانى قوله « تجد » وهو جواب الشرط وجزاؤه .. إلىّ غير ذلك من أدوات الشرط المبوّب لها فى كتب النحو (٣).

والتقييد بالشرط كالتقييد بحروف الجر له اعتبارات نحوية ظاهرة

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٤) .   (٢) سورة النساء الآية (١٢٣) .

(٣) ينظر شرح ابن عقيل تحقيق محى الدين عبد الحميد جـ٤ ص ٢٧- ٣٠ بتصرف .

تعرف بمعرفة ما بين أدواته من الفروق فى معانيها النحوية .

ولكن بعض هذه الأدوات لا يخلو إعتباره من أسرار ولطائف يزيغ فيها كثير من الخاصة عن الصواب ، لأن هذه الأدوات كثيراً ما يستعمل بعضها مكان بعض ، فيظن أنه لا فرق بينها فى ذلك ، وأنها لا تجرى فيه وراء إعتبارات دقيقة ، وهذه الأدوات هى : إن وإذا ولو [١].

أما إن وإذا فهما للشرط فى الاستقبال أى تقييد حصول الجزاء بحصول الشرط فى الزمن المستقبل ، يعنى أن فعل الشرط فيهما لابد أن يكون مستقبل المعنى سواء كان ماضى اللفظ أو مضارعه كقولك : إن زرتنى أكرمتك ، وإذا جاءنى زيد أعطيته .

والفرق بينهما هو أنّ « إنْ » تستعمل فى الشرط غير المقطوع بوقوعه ، أى : غير المجزوم بوقوعه ، والمشكوك فى حدوثه ، ولهذا يغلب إستعمالها فى الأحكام النادرة الوقوع ، ويغلب فى شرطها أن يكون مضارعاً تقول لصاحبك إن تكرمنى أكرمك إذا كنت غير قاطع بمجيئه .

وأما « إذا » فتستعمل فى الشرط المقطوع بوقوعه ، أى تستعمل فى الشرط الذى جزم المتكلم بوقوعه فى المستقبل ، ولهذا يغلب إستعمالها فى الأحكام الكثيرة الوقوع ، ويغلب فى شرطها أن يكون ماضياً ، وإن كانت تقلبه إلى الدلالة على الزمن المستقبل ، تقول : إذا زالت الشمس آتيك [٢].

---

(١) ينظر البلاغة العالية للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص ٩٩ مكتبة الآداب للطبع والنشر .

(٢) ينظر الإيضاح للخطيب القزوينى ، ومختصر سعد الدين التفتازانى ضمن شروح التلخيص جـ ٢ ص ٣٩ . ٤٠ ، بتصرف ، والبلاغة العالية للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص ٩٩ .

وهذا الفــرق الكائن فى أصل دلالة كل من « إن وإذا » هو الذى تتفرع عنه الدلالات البلاغية لهاتين الأداتين .

ففى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

نجد أنه أتى فى جانب الحسنة بلفظ إذا وفى جانب السيئة بلفظ إن يقول الدكتور أبو موسى كاشفاً عن سر هذا التعبير . لما كان مجىء الحسنة أمراً مقطوعاً به جىء بلفظ إذا ، وعرفت الحسنة تعريف الجنس ليشمل كل ما هو من جنس الحسنات ، وشأن هذا أن يقع كثيراً .

وذكر لفظ « إن » مع إصابة السيئة ، لأن إصابة السيئة نادرة بالنسبة لإصابة الحسنة وقد نكرت السيئة لإفادة التقليل فأشارت إلى هذه الندرة(٢).

ومثله قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (٣).

جىء بإذا فى جانب الرحمة للإشارة إلى أن إذاقة الناس قدراً قليلاً من الرحمة أمر مقطوع به ، ولإفادة هذا المعنى نكرت الرحمة لتفيد التقليل فيكون التقليل أقرب إلى القطع بالوقوع ، وجىء فى جانب السيئة بإن

(١) سورة الأعراف الآية (١٣١) .
(٢) ينظر خصائص التراكيب للدكتور أبو موسى مطبعة وهبة الطبعة الثانية ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
(٣) سورة الروم الآية (٣٦) .

لإفادة أن إصابة السيئة لهم أمر غير مقطوع وغير مجزوم به ، وأن الله لا يؤاخذهم دائماً بما قدمت أيديهم ، ولكنه يعفو عن كثير .

ونظراً لهذه الاعتبارات الدقيقة ، والإشارات اللطيفة التى تحتاج فى إدراكها والوقف عليها إلى فضل تأمل وإعمال فكر ، ومزيد معرفة بدلالات الكلمات وإستعمالاتها والتى قلما تراعى فى غير القرآن الكريم « وكثيراً ما يخطىء فيها الشعراء والبلغاء ، قال الخطيب : قال الزمخشرى « وللجهل بموقع إن وإذا يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون ، ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع فى قوله يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شُفع له فيها فقضاها .

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجتى　　تولى سواكم أجرها واصطناعها

أبى لك كسب الحمد رأى مقصر　　ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هى حثته على الخير مرة　　عصاها وإن همت بشر أطاعها

فلو عكس لأصاب » (١) .

وبيان ذلك : هو أن الشاعر ـ كما هو واضح للمتأمل ـ يذم الرجل ويهجوه هجاء صريحاً ، ويذكر رأيه المقصر ، ونفسه الضائقة بالخير .

وقوله : « إذا هى حثته على الخير مرة » يفيد أن حث نفسه على الخير أمر مقطوع به ، وقوله : « وإن همت بشر » يفيد أن همها بالشر أمر نادر .

---

(١) ينظر الإيضاح ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٤٢ .

والنفس التى تحث على الخير قطعاً ، وتهم بالشر نادراً نفس ممدوحة محمودة ، فكيف يتفق هذا مع سياق الذم ، وتصريحه بأن نفسه أضاق الله الخير باعها ، ولو قال : إن هى حثته على الخير مرة عصاها ، وإذا همت بشر أطاعها لاستقام المعنى [١].

ويستطرد الدكتور أبو موسى فى بيان ما توحى به هاتان الأداتان « إن وإذا » من لطائف وإشارات دقيقة فيقول : « وترى فى الشعر المطبوع الذى يقوم على الخبرة العميقة لطبائع الكلمات ، ودقيق دلالاتها ، ترى فيه هاتين الأداتين ووراءهما إشارات لطيفة .

خذ قول عامر بن الطفيل يذكر بلاءه وبلاء قومه .

وقد علم المزنوق أنى أُكِرُّه ... على جمعهم كرا المنيح المشهر

إذا أزور من وقع الرماح زجرته ... وقلت له ارجع مقبلاً غير مدبر

والمزنوق اسم فرسه ، والشاعر يكر فرسه على جموع الأعداء كراً كثير الجولان ، وهو وفرسه فى قلب المعمعة لا يريم عن ميدانها يجول فيها جولان المنيح ، وهو قَدَحٌ لاحظ له ، وهو كثير الجولان فى القداح تكثر به ، وإذا خرج من القداح رُد فيها ، وإذا خرج منها قدح آخر غير المنيح عزل عنها .

والشاهد قوله : « إذا ازور من وقع الرماح زجرته » .

وقد جاء بإذا ليشير إلى صعوبة الموقف وشدة الوطأة فيه ، وأن

(١) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٥٩ .

الخيل العتاق لا تطيقه ، فهى كثيراً ما تَزْوَرُّ عن اللقاء وتميل ، ولذلك تجد الشاعر يتعهد فرسه ويقول له :

ارجع مقبلا غير مدبر ، وينبهه إلى أن الفرار خزاية ، وأن حالى كحالك فى مواجهة صعوبة الثبات فهذه رماحهم فِيَّ شرعاً ، وأنت حصان ماجد العرق . قال بعده :

وأنبأتــه أن الفــرارَ خزايــة   على المرء ما لم يبل جهداً ويعذر

ألست ترى رماحهم فى شرعاً   وأنت حصان ماجد العرق فاصبر (١)

وأما « لو » فهى للشرط فى الماضى مع القطع بإنتفاء الشرط ، فيلزم إنتفاء الجزاء ، كإنتفاء الإكرام فى قولك : لو جئتنى لأكرمتك ، ولذا قيل : هى لامتناع الجزاء لامتناع الجواب (٢).

يعنى أن الجزاء منتف بسبب إنتفاء الشرط لترتبه عليه (٣).

ويلزم كون جملتيها فعليتين ، وكون الفعل ماضياً ، ولا يعدل فى جملتيها عن الفعل الماضى إلى المضارع إلا لنكتة كما سيتضح لنا بعد قليل من خلال التمثيل لها (٤).

وبعد هذا البيان لما تفيده كل من « إن وإذا ولو » من معان ، وما بينها من فروق أسوق هذه الأمثلة التى من خلال دراستها وتحليلها يمكن أن نقف على ما توحى به من أسرار بلاغية ، ودلالات فنية . تدل على حسن إختيارها وبراعة موقعها .

---

(١) ينظر خصائص التراكيب للدكتور أبو موسى ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
(٢) ينظر الإيضاح - ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٦٩ .
(٣) ينظر حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٦٩ .
(٤) ينظر مختصر السعد ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٧٦ .

أولاً : « إنْ »

(١) قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١).

بعد أن قرر سبحانه أمر توحيده بأحسن أسلوب فى الآيات السابقة عقبه فى هاتين الآيتين بما يدل على تصديق رسوله ﷺ وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أى : وإذا كنتم أيها الناس فى شك وارتياب من صدق هذا القرآن ، المعجز فى بيانه ، وتشريعه ، ونظمه ، الذى أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أى : فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن فى البلاغة والفصاحة والبيان . ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه ، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى ، قال البيضاوى : المعنى : ادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم ، وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالى ، فإنه لا يقدر أن يأتى بمثله إلا الله (٢)﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

---

(١) سورة البقرة : الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

(٢) ينظر تفسير البيضاوى جـ١ ص ١٧ .

أى : أنه مختلف ، وأنه من كلام البشر ، وجوابه محذوف دلّ عليه ما قبله .

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ . أى فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره ، وعجزتم فى الماضى عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه ، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ، ﴿ ولَن تَفْعَلُوا﴾ . أى : ولن تقدروا فى المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله ...

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ . أى : فخافوا عذاب الله ، واحذروا نار الجحيم التى جعلها الله جزاء المكذبين ، ﴿ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ . أى : اتقوا النار التى مادتها التى تشعل بها وتضرم لإيقادها هى الكفار والأصنام التى عبدوها من دون الله كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال مجاهد : حجارة من كبريت أنتن من الجيفة يعذبون بها مع النار . ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . أى : هيئت تلك النار وأرصدت للكافرين الجاحدين ، ينالون فيها ألوان العذاب المهين (١) .

والذى يحتاج إلى تأمل ونظر هو إستعمال « إن » فى الشرط المقطوع به فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وقوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ وهى فى الواقع تستعمل فى الشرط المشكوك فى حدوثه ، وغير المقطوع بوقوعه ، وكان مقتضى ظاهر الحال أن يأتى بإذا دون إن ، فالقوم فى ريب قطعاً ، ولم يقدروا على الإتيان فعلاً بمثل سورة من سوره !

(١) ينظر تفسير الآلوسى . جـ١ ص ٤٥٨ ، وصفوة التفاسير للصابونى القسم الأول ص٢٨ .

والسر فى ذلك هو توبيخ هؤلاء المعاندين على الريب والشك ، والإشارة إلى أن المقام يشتمل على ما يقلعه من أصله ، ويجلى حقائق الرسالة وصدقها تجلية كاشفة ، فوقوع الريب منكم لا ينبغى أن يكون إلا على سبيل الفرض كما يفرض المحال (١) هذا فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ .

وقد ذكر بعض البلاغيين فى هذه الآية أنه من الممكن أن تكون من باب التغليب ، أى تغليب غير المتصف بالريب من المخاطبين على المتصف به منهم ، فإنه كان فى الكفار من يعرف الحق وينكره عناداً (١).

واعترض على هذا بأنه جَمْعٌ بين مرتاب يقيناً ، وغير مرتاب يقيناً ، وكلاهما لا يصلح موقعاً « لإن » لأنها إنما تكون فى غير المقطوع به لا فى المقطوع بعدمه (٢).

قال صاحب التحرير والتنوير : « أتى بإنْ فى تعليق هذا الشرط ، وهو كونهم فى ريب ، وقد علم فى فن المعانى إختصاص إن بمقام عدم الجزم بوقوع الشرط ، لأن مدلول هذا الشرط قد حَفَّ به من الدلائل ما شأنه أن يقلع الشرط من أصله ، بحيث يكون وقوعه مفروضاً فيكون الإتيان بإن مع تحقق المخاطب علم المتكلم بتحقق الشرط توبيخاً على تحقق ذلك الشرط ، كأنَّ ريبهم فى القرآن مستضعف الوقوع ، ووجه ذلك أنَّ القرآن قد اشتملت ألفاظه ومعانيه على ما لو تدبره العقل السليم لجزم بكونه من عند

(١) ينظر الإيضاح . ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ بتصرف ، وخصائص التراكيب ص ٢٦٥ .

(٢) ينظر عروس الأفراح . ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٤٩ بتصرف .

الله تعالى ، فإنه جاء على فصاحة وبلاغة ما عهدوا مثلهما من فحول بلغائهم ، وهم فيهم متوافرون متكاثرون حتى لقد سجد بعضهم لبلاغته ، واعترف بعضهم بأنه ليس بكلام بشر ، وقد اشتمل من المعانى على ما لم يطرقه شعراؤهم وخطباؤهم وحكماؤهم ، بل وعلى ما لم يبلغ إلى بعضه علماء الأمم ، ولم يزل العلم فى طول الزمان يظهر خبايا القرآن ، ويبرهن على صدق كونه من عند الله ، فهذه الصفات كافية لهم فى إدراك ذلك ، وهم أهل العقول الراجحة ، والفطنة الواضحة التى دلت عليها أشعارهم وأخبارهم وبداهتهم ومناظرتهم ، والتى شهد لهم بها الأمم فى كل زمان ، فكيف يبقى بعد ذلك كله مسلك للريب فيه إليهم فضلاً عن أن يكونوا منغمسين فيه(١) .

والسر فى إيثار « إن » المفيدة للشك على إذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم فى قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ هو مجاراةّ معهم بحسب حسبانهم قبل التجربة ، وأيضاً التهكم بهم وبقدراتهم .

وقد اجتهد المفسرون فى الكشف عن السر فى مجيء « إن » دون « إذا » وما يفيده هذا التعبير كل حسب إجتهاده ، وما أوتى من علم ومعرفة فقال صاحب الكشاف : فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلا جيء بإذا الذى للوجوب دون إنْ الذى للشك ؟ . قلت : فيه وجهان : أحدهما : أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم ، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم ، لا تكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام ، والثانى : أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوّة الواثق من

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ١ ص ٣٣٦ .

نفسه بالغلبة على من يقاويه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكماً به [١] .

وقال الألوسى : أتى « بإنْ » والمقام « لإذا » لإستمرار العجز ، وهو سبحانه وتعالى اللطيف الخبير ، تهكماً بهم ، كما يقول الواثق بالغلبة لخصمه وإن غلبتك لم أبق عليك ، وتحميقاً لهم ، لشكهم فى المتيقن الشديد الوضوح ، ففى الآية إستعارة تهكمية تبعية حرفية ، أو حقيقية وكناية ، كسائر ما جاء على خلاف مقتضى الظاهر .

وقد يقال : عبر بذلك ، نظراً لحال المخاطبين ؛ فإن العجز كان قبل التأمل ، كالمشكوك فيه لديهم ، لإتكالهم على فصاحتهم [٢] .

وقال صاحب التحرير والتنوير : وجىء بإن الشرطية التى الأصل فيها عدم القطع مع أن عدم فعلهم هو الأرجح بقرينة مقام التحدى والتعجيز ؛ لأن القصد إظهار هذا الشرط فى صورة النادر مبالغة فى توفير دواعيهم على المعارضة بطريق الملاينة والتحريض ، واستقصاء لهم فى إمكانها ، وذلك من إستنزال طائر الخصم ، وقيد لأوابد مكابرته ، ومجادلة له بالتى هى أحسن حتى إذا جاء للحق وأنصف من نفسه يرتَقى معه فى درجات الجدل ؛ ولذلك جاء بعده ﴿ ولَن تَفْعَلُوا ﴾ كأن المتحدى يتدبر فى شأنهم ، ويزن أمرهم ، فيقول : أولاً : ائتوا بسورة ، ثم يقول قدروا أنكم لا تستطيعون الإتيان بمثله ، وأعدوا لهاته الحالة مخلصاً منها ، ثم يقول ها قد أيقنت وأيقنتم أنكم لا تستطيعون الإتيان بمثله ، مع ما فى هذا من توفير

(١) ينظر الكشاف جـ١ ص ٤٩ .
(٢) ينظر تفسير الألوسى جـ١ ص ٤٧٠ .

دواعيهم على المعارضة بطريق المخاشنة والتحذير (١).

وفى الآيتين لطائف ونكات بلاغية أخرى :

منها : أن الإتيان « بفى » الدالة على الظرفية فى قوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أفاد أن الريب قد امتلكهم وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف ، واستعارة (فى) لمعنى الملابسة شائعة فى كلام العرب كقولهم : هو فى نعمة .

ومنها : أن فى وصف الرسول ﷺ بالعبودية فى قوله ﴿ عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ دلالات متنوعة متكاملة ؛ فهو أولاً : تشريف للنبى ، وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى ، دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك ، وهو ثانياً : تقرير لمعنى العبودية ، فى مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده ، وإطراح الأنداد كلها من دونه ؛ فها هو ذا النبى فى مقام الوحى ـ وهو أعلى مقام ـ يدعى بالعبودية لله ، ويَشْرُفُ بهذه النسبة فى هذا المقام (٢).

ومنها : أن قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ اعتراض فى آخر الكلام وتذييل . أتى فيه بإن الشرطية التى الأصل فى شرطها أن يكون غير مقطوع بوقوعه ، لأن صدقهم غير محتمل الوقوع .. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما سبق عليه ؛ أى : إن كنتم صادقين فى أن القرآن كلام بشر فأتوا بسورة من مثله .

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ١ ص ٣٤٧ .
(٢) ينظر : فى ظلال القرآن جـ١ ص ٤٨ .

وفى هذه الآية إثارة لحماسهم إذ عرّض بعدم صدقهم فتتوفر دواعيهم على المعارضة (١).

ومنها أن قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ عبر فيه عن الإتيان بالفعل ، ووجهه : أن الإتيان فعل من الأفعال تقول أتيتَ فلانا ؟ فيقال لك : نعم ما فعلت .

والفائدة فيه أنه جارٍ مجرى الكناية التى تعطيك إختصاراً ووجازة تغنيك عن طول المكنى عنه ، ألا ترى أن الرجل يقول ضربت زيداً فى موضوع كذا على صفة كذا ، وشتمته ونكلت به ويعدّ كيفيات وأفعالاً ، فتقول له بئسما فعلت ، ولو ذكرت ما أُنبئته عنه لطال عليه ، وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال : فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، ولن تأتوا بسورة من مثله (٢).

ومنها : أن قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ جملة اعتراضية بين فعل الشرط ﴿ تَفْعَلُوا ﴾ وبين ما ينبى عنه جواب الشرط وهو قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ أفادت تقرير مضمون ما تقدمها ، ومؤكد لإيجاب العمل بتاليها .

وهذه معجزة باهرة ، حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به سبحانه وقد وقع الأمر كذلك . كيف لا . ولو عارضوه بشيء يدانيه ، لتناقله الرواة لتوافر الدواعى ؟ وما أتى به نحو مسيلمة الكذاب ، مما تضحك منه الثكلى

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ١ ص ٣٤١ .
(٢) ينظر الكشاف جـ١ ص ٥ بتصرف .

لم يقصد به المعارضة ، وإنما ادعاه وحيا (١) .

ومنها : أن قوله تعالى ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ أثر لجواب الشرط فى قوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ دل على جمل محذوفة للإيجاز ؛ لأن جواب الشرط فى المعنى هو ما جيء بالشرط لأجله ، وهو مفاد قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ فتقدير جواب قوله : فإن لم تفعلوا « فأيقنوا بأن ما جاء به محمد منزل من عندنا ، وأنه صادق فيما يأمركم به من وجوب عبادة الله وحده ، واحذروا إن لم تمتثلوا أمره عذاب النار » فوقع قوله ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ موقع الجواب لدلالته عليه وإذانه به ، وهو إيجاز بديع ، وذلك أنّ اتقاء النار لم يكن مما يؤمنون به من قبلُ ؛ لتكذيبهم بالبعث ، فإذا تبين صدق الرسول لزمهم الإيمان بالبعث والجزاء (٢) .

ومنها : أن فى جعل الناس والحجارة وقودا دليل على أن نار جهنم مشتعلة من قبل زج الناس فيها ، وأن الناس والحجارة إنما تتقدبها لأن نار جهنم هى عنصر الحرارة كلها كما أشار إليه حديث الموطأ : إن شدة الحر من فيح جهنم ، فإذا اتصل بها الآدمى اشتعل ونضج جلده ، وإذا اتصلت بها الحجارة صهرت .

وفى الإحراق بالسيال الكهربائى نموذج يقرّب ذلك للناس اليوم .

وروى عن ابن عباس أن جهنم تتقد بحجارة الكبريت فيكون نَموذَجُها البراكين الملتهبة .

---

(١) ينظر تفسير الآلوسى جـ١ ص ٤٧٢ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ١ ص ٣٤٤ .

ومنها : أن قوله تعالى ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ استئناف ، لم يُعطف ، مع أن مقتضى الظاهر أن يعطف على الصلة السابقة لقصد التنبيه على أنه مقصود بالخبرية ؛ لأنه لو عطف لأوهم العطف أنه صفة ثانية ، أو صلة أخرى ، وجعله خبرا أهول وأفخم وأدخل للروع فى قلوب المخاطبين ، وهو تعريض بأنها أعدت لهم ابتداء ، لأن المحاورة معهم [(١)].

(٢) قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [(٢)].

ومعنى الآية الكريمة : والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك فى أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ولا صلوا إلى قبلتك ، ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حولك الله عنها ، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود : لو ثبتَّ على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذى ننتظره تغريراً له عليه الصلاة والسلام وقوله ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ . أى : إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود ، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بنى إسرائيل ، ولئن فرض وقدر أنك سايرتهم على أهوائهم ، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذى جاءك بطريق الوحى تكون ممن ارتكب أفحش الظلم [(٣)].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ١ ص٣٤٥ .
(٢) سورة البقرة الآية (١٤٥) .
(٣) ينظر صفوة التفاسير الصابونى القسم الأول ص٨٩ ، ٩٠ .

والذى يستوقفنا فى الآية هو الكشف عن سر استعمال « إن » الموضوعة للمعانى المحتملة فى قوله تعالى ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ﴾ بعد التحقق من أن اتباع سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه أهواءهم أمر مستحيل .

ولعل السر فى هذا التعبير هو أنه كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير بمعنى ، ولئن اتبعتهم مثلاً بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر ، وفيه تعريض بغيره ، وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ، ويتبع الهوى ، وتهيج إلهاب للثبات على الحق (١).

ثم فى هذا التعبير فائدة أخرى جليلة هى الإشارة إلى سلطان الألوهية القاهرة ، وتحديد منزلة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من هذا السلطان ، وأنه ليس إلا رجلاً منكم يخاطب خطابكم ، فلا يتوهم متوهم أنه عليه الصلاة والسلام على شىء من صفات الألوهية ، وإن قربه ربه أحسن تقريب ، وكرمه أكمل تكريم ، وبهذا ومثله مما يحدد ويعمق صفة البشرية فى رسول الله ﷺ ، يضمن القرآن ويحفظ نقاء عقيدة التوحيد فلا يشوبها فى الإسلام ما شابها فى الشرائع الأخرى ، حيث قالت النصارى المسيح ابن الله ، وقالت اليهود عزيز ابن الله .

وشىء آخر فى هذا الأسلوب هو الإشارة إلى أن التفاضل والقرب عند الله مناطه العبادة والتقوى ، فأنت يا محمد وإن كنت رسولاً من أكرم الرسل ، ونبيا مقدماً فى الأنبياء إنما مرجع ذلك لخشيتك وتقواك

---

(١) ينظر الكشاف جـ١ ص ١٠١ .

وعبادتك وخلوصك فى الوحدانية فإذا كان منك غير ذلك حبط كل عمل عملته ، ولهذا المعنى يذكر القرآن الكريم الأنبياء بلفظ العبد كما فى قوله تعالى

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾(١) ، للإشارة إلى أن البشرية كلها سواء فى العبودية وإلى أن فضيلة هؤلاء إنما كانت بالعبادة (٢) .

والآية تشير إلى أن اليهود لن يقتنعوا بدليل ، لأن الذى ينقصهم ليس هو الدليل ، إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى ، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه .

فهم فى عناد يقوده الهوى ، وتؤثره المصلحة ، ويحدوه الغرض .... إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه ... فهم يخشونه على مصالحهم وعلى سلطانهم ، ومن ثَمَّ يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذى لا يفتر ، بشتى الطرق وشتى الوسائل عن طريق مباشر وعن طرق أُخرى غير مباشرة ، يحاربونه وجهاً لوجه ، ويحاربونه من وراء ستار ، ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أى ستار (٣) .

٣ ـ قال تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) سورة مريم الآية (٢) .
(٢) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٧٠ .
(٣) ينظر فى ظلال القرآن جـ١ ص ١٣٤ .

وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

ومعنى الآية ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ . أى : وليجتهد فى العفة وقمع الشهوة الذين لا تتيسر لهم سبل الزواج لأسباب مادية ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ . أى : حتى يوسع الله عليهم ويسهل لهم أمر الزواج ، فإن العبد إذا اتقى الله جعل له من أمره فرجاً ومخرجاً ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ . أى : والذين يريدون أن يتحرروا من رق العبودية بمكاتبة أسيادهم من العبيد والأرقاء ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ . أى فكاتبوهم على قدرٍ من المال إذا عرفتم منهم الأمانة والرشد ليصيروا أحراراً ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ . أى : أعطوهم مما أعطاكم الله من الرزق ليكون لهم عوناً على فكاك أنفسهم ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ . أى لا تجبروا إماءكم على الزنى ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ . أى : إن أردن التعفف عن مقارنة الفاحشة ﴿ لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . أى : لأجل أن تنالوا حطام هذه الحياة الزائل ، وتحصلوا على المال بطريق الفاحشة والرذيلة ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . أى ومن يجبرهن على الزنى فإن الله غفور لهن رحيم بهن لا يؤاخذهن بالزنى ، لأنهن أكرهن عليه ، وسينتقم ممن أكرههم شر انتقام(٢).

وإذا تأملنا قوله تعالى ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ نرى أنه جاء فيه بالماضى لفظاً مع إن دون المضارع ، وأتى بإن

(١) سورة النور آية (٣٣) .

(٢) ينظر صفوة التفاسير القسم ١٠ ص ١٨ .

دون إذا ، وهذا التعبير وراءه أسرار بلاغية منها :

أن طالب الشيء يكثر تصوره إياه حتى يخيل إليه غير الواقع واقعاً ، وقد جاء القرآن الكريم على طريقة العرب فى كلامهم وخطابهم بما يخاطبون به أنفسهم ، فآثر الماضى على المضارع لإظهار الرغبة فى وقوع إرادة التحصن من الفتيات المؤمنات حيث إنها الصفة المرغوبة والتى ينبغى أن يكُنَّ عليها (١).

ومنها : أن فى إيثار كلمة « إن » على « إذا » مع الفعل الماضى « أردن » الذى يفيد تحقق إرادة التحصن عندهن إيذان بوجوب الإنتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصن فى حيز التردد والشك ، فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع والثابت .

ومنها : تشنيع حالة البغاء فى الإسلام والتنفير منها وخاصة إذا كان عن إكراه وعن منع من التحصن . فالأصل فى المملوكة أن يُحصنها سيدها ، أما أن يأمرها بالزنى وتمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة منه .

قال الزمخشرى : فإن قلت : لم أقحم قوله : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ قلت : لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن وآمر الطيعة المواتية للبغاء لا يسمى مُكْرِها ، ولا أمره إكراها ، وكلمة « إن » وإيثارها على « إذا » إيذان بأن المساعيات ـ أى الإماء اللاتى يساعين على موالهن ـ كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن ، وأن ما وجد من الرفض والإباء كان من حيز

(١) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٦٨ .

الشاذ النادر (١).

إلا أن ابن المنير صاحب حاشية الإنتصاف على الكشاف يرى أن كلام الزمخشرى غير مقنع فقال معقباً عليه بقوله : لم يجب ـ أى الزمخشرى ـ بما يشفى الغليل وعند العبد الفقير إلى الله تعالى : إن فائدة ذلك . والله أعلم . أن يبشع عند المخاطب الوقوع فيه لكى يتيقظ أنه كان ينبغى له أن يأنف من هذه الرذيلة ، وإن لم يكن زاجر شرعى ، ووجه التبشيع عليه أن مضمون الآية النداء عليه بأن أمته خير منه ؛ لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة ، وهو يأبى إلا إكراهها عليها ، ولو أُبْرِز مكنون هذا المعنى لم يقع الزاجر من النفس موقعه ، (٢).

وإنى أميل إلى ما ذهب إليه ابن المنير ، وهذا ما يؤيده مضمون كلام أبى السعود فى تفسيره لهذه الآية الكريمة حيث قال : قوله تعالى ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ليس لتخصيص النهى بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا وإخراج ما عداها من حكمه ، كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهن الزنا لخصوص الزانى ، أو لخصوص الزمان ، أو لخصوص المكان ، أو لغير ذلك من الأمور المصححة للإكراه فى الجملة ، بل للمحافظة على عادتهم المستمرة ، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور ، وقصورهن فى معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرة عن تعاطى القبائح ... وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبائح ما لا يخفى ، فإن من له

(١) ينظر الكشاف جـ٣ ص ٧٦ .
(٢) ينظر حاشية الإنتصاف على الكشاف جـ٣ ص ٧٦ .

أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من إمائه ، فضلاً عن أمرهن به أو إكراههن عليه لا سيما عند إرادتهن التعفف فتأمل ، ودع عنك ما قيل من أن ذلك لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن ، وما قيل من أنه إنْ جُعل شرطاً للنهى لا يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون إرتفاع النهى لإمتناع المنهى عنه ، فإنهما بمعزل من التحقيق ، وإيثار كلمة إنْ على إذا مع تحقق الإرادة فى مورد النص حتماً للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصن فى حيز التردد والشك فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع ، وتعليله بأن الإرادة المذكورة منهن فى حيز الشاذ النادر مع خلوه عن الجدوى بالكلية يأباه إعتبار تحققها إباءً ظاهراً (١) .

قال السيوطى فى سبب نزول هذه الآية : أخرج مسلم من طريق أبى سفيان عن جابر بن عبد الله قال : كان عبد الله ابن أبىّ يقول لجارية له : اذهبى فابغينا شيأ ، فأنزل الله ﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ وأخرج أيضاً من هذا الطريق أن جارية لعبد الله بن أبىّ يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة فكان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى النبى ﷺ فأنزل الله ﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ .

وأخرج الحاكم من طريق أبى الزبير عن جابر قال كانت مسيكة لبعض الأنصار فقالت إن سيدى يكرهنى على البغاء فنزلت ﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ .

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود جـ٤ ص ٥٧ ، ٥٨ .

وأخرج سعيد بن منصور عن شعبان عن عمرو بن دينار عن عكرمة أن عبد الله بن أبى كانت له أمتان مسيكة ومعاذة فكان يكرههما على الزنا ، فقالت : إحداهما : إن كان خيراً فقد استكثرت منه ، وإن كان غير ذلك فإنه ينبغى أن أدعه ، فأنزل الله ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾[1].

٤ ـ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2].

ومعنى الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أى والله لقد أوحى إليك وإلى الأنبياء قبلك ، فإنّ اللام فى قوله ﴿ وَلَقَدْ ﴾ موطئة للقسم ، وقوله ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ أى لئن أشركت يا محمد ليبطلن ويفسدن عملك الصالح ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . أى : ولتكونن فى الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك .

والذى يحتاج إلى بحث وبيان هو مجيء الماضى دون المضارع بعد إنْ الشرطية التى تفيد الشك وعدم القطع بوقوع شرطها .

والسر فى ذلك هو التعريض بمن يشرك بعد إيمانه ، لأنه من المقطوع به أن سيدنا محمداً ﷺ لن يشرك أبداً ، وما أشرك قَبْلَ النبوة فكيف بعدها ، وفضل هذا الأسلوب على أسلوب التصريح ، وأنه لم يقل لئن

---

(١) ينظر لباب النقول فى أسباب النزل لجلال الدين السيوطى على تفسير الجلالين الجزء الثانى ص (٥٠) مطبعة البابى الحلبى .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٥) .

أشركتم ليحبطن عملكم أن فيه أبلغية فى النسبة إليهم ؛ لأن المعنى إذا كان محمد وهو الحبيب المقرب يحبط عمله إن أشرك فكيف بغيره ، ثم فيه تبليغهم الموعظة من طريق غير مباشر ، وهذا أفعل فى النفوس وأعطف لها (١) .

وفيه من المبالغة فى التحذير من الشرك ما فيه حيث إنه بدأ أول ما بدأ بالأنبياء والمرسلين — وهم — صلوات الله عليهم — لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبداً ، ولكن التحذير هنا ينبه سواهم من أقوامهم إلى تفرد ذات الله سبحانه فى مقام العبادة ، وتوحد البشر فى مقام العبودية ، بما فيهم الأنبياء والمرسلين (٢) .

قال أبو السعود : قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل ، وإقناط الكفرة ، والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره ، فكيف بمن عداه ، وإفراد الخطاب بإعتبار كل واحد ، واللام الأولى موطئة للقسم ، والأخريان للجواب ، وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم عند الإشراك منهم ، لأن الإشراك منهم أشد وأقبح ، وأن يكون مقيداً بالموت كما صرح به فى قوله تعالى ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ ، وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب (٣) .

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٦٩ بتصرف .

(٢) ينظر فى ظلال القرآن جـ٥ ص (٣٠٦١) .

(٣) ينظر تفسير أبى السعود جـ٤ ص ٢١٤ .

(٥) قال تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ (١).

الإستفهام فى الآية إستفهام إنكارى . أى أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم ، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن ، لأجل أنكم مسرفون فى التكذيب والعصيان ؟

لا ، بل نذكركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق . قال قتادة :

لو أن هذا القرآن رُفع حين ردّه الأوائل لهلكوا ، ولكن الله برحمته كرره عليهم ، ودعاهم إليه عشرين سنة قال ابن كثير : وقول قتادة لطيف المعنى جداً ، وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير ، وإلى الذكر الحكيم ، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل يأمر به ليهتدى به من قدّر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته (٢).

وقراءة نافع وحمزة والكسائى وأبو جعفر وخلف ﴿إِن كُنتُمْ﴾ بكسر همزة « إن » فتكون « إن » شرطية .

ولما كان الغالب فى إستعمال « إنْ » الشرطية أن تقع فى الشرط الذى ليس متوقعاً وقوعه بخلاف « إذا » التى هى للشرط المتيقن وقوعه كان الإتيان « بـإن » هنا دون « إذا » مع تحقق إسرافهم لغرض بلاغى

(١) سورة الزخرف الآية (٥) .

(٢) ينظر التفسير الكبير للرازى جـ ٢٧ ص ١٩٥ ، والمختصر لابن كثير جـ٣ ص ٢٨٥ وصفوة التفاسير القسم ١٥ ص ٤٠ .

وهو : قصد تنزيل المخاطبين المعلوم إسرافهم منزلة من يُشَك فى إسرافه ، لأن توفر الأدلة على صدق القرآن من شأنه أن يزيل إسرافهم ، وفى هذا ثقة بحقية القرآن وضرب من التوبيخ على إمعانهم فى الإعراض(١) .

وفى إقحام « قوما » قبل « مسرفين » دلالة على أن الإسراف صار طبعاً لهم وبه قوام قوميتهم .

ويقول الدكتور أبو موسى : فكونهم قوماً مسرفين حقيقة متقررة ، وقد استعملت « إن » فى هذا الحكم المقطوع به لأن المراد توبيخهم على الإسراف ، وتصوير أن المقام لاشتماله على ما يقلع الشرط من أصله لا يصلح إلا لفرضه كما يفرض المحال . هذه عبارتهم . ومرادهم بالمقام . أى ما يحيط بهؤلاء المسرفين من آيات الله البينات فى الكون والنفس والقرآن ، كل ذلك إذا أحسنوا تدبره يقتلع الشرط من أصله أى الإسراف فى العناد والكفر (٢) .

والآية الكريمة تشعر القوم الذين جُعل القرآن الكريم بلسانهم بقيمة هذه الهبة الضخمة التى وهبها الله إياهم ، وقيمة هذه النعمة التى أنعم الله بها عليهم ، ويكشف لهم عن مدى الإسراف القبيح فى إعراضهم عنها وإستخفافهم بها ، ومدى إستحقاقهم للإهمال والإعراض ، ومن ثمَّ يعرِّض بهم وبإسرافهم ، ويهددهم بالترك والإهمال جزاء الإسراف (٣) .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ١٦٤ . (٢) ينظر خصائص التراكيب ص : ٢٦٤ .
(٣) ينظر فى ظلال القرآن الكريم جـ٥ ص ٣١٧٦ بتصرف .

ثانياً : إذا

(١) قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [١].

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ . أى : وإذا أصاب الناس شدة وفقر ومرض ، وغير ذلك من أنواع البلاء ﴿ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ . أى : أفردوه تعالى بالتضرع والدعاء لينجوا من ذلك الضر ، وتركوا أصنامهم لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله تعالى ، فلهم فى ذلك الوقت إنابة وخضوع .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ . أى : ثم إذا أعطاهم السعة والرخاء والصحة وخلصهم من ذلك الضر والشدة إذا جماعة منهم يشركون بالله ويعبدون معه غيره ، والغرض من الآية التشنيع على المشركين ، فإنهم يدعون الله فى الشدائد ، ويشركون به فى الرخاء [٢].

وقد جيء بلفظ إذا مع الضر فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ وذلك لأنه ذكر لفظ المس ، والمس أقل من الإصابة ومعناه وضع اليد على شيء ليعرف وجوده ، أو يختبر حاله ، واختير هنا لما يستلزمه من خفة الإصابة . ونكر الضر ليفيد قدراً يسيراً من الضر ، وذكر لفظ

---

(١) سورة الروم : الآية (٣٣) .
(٢) ينظر صفوة التفاسير القسم ١٢ ص ١٣ .

الناس المستحقين أن يلحقهم كل ضر . والحديث عن الناس الذين إذا مسهم الضر دعوا ربهم منيبين إليه وإذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ، فكان فى هذا إشارة إلى أن مس قدر يسير من الضر لأمثال هؤلاء حقه أن يكون فى حكم المقطوع به (١).

قال الخطيب قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ جيء فيه بلفظ إذا مع الضر فللنظر إلى لفظ المس ، وإلى تنكير الضر المفيد فى المقام التوبيخى القصد إلى اليسير من الضر ، وإلى الناس المستحقين أن يلحقهم كل ضرر ، وللتنبيه على أن مساس قدر يسير من الضر لأمثال هؤلاء حقه أن يكون فى حكم المقطوع به (٢).

وحول هذه الآية الكريمة يقول الشيخ سيد قطب : إنها صورة للنفس البشرية التى لا تستمد من قيمة ثابتة ، ولا تسير على نهج واضح ، صورة لها وهى تتأرجح بين الانفعالات الطارئة ، والتصورات العارضة ، والإندفاعات مع الأحداث والتيارات فعند مس الضر يذكر الناس ربهم ، ويلجأون إلى القوة التى لا عاصم إلا إياها ، ولا نجاة إلا بالإنابة إليها ، حتى إذا انكشفت الغمة ، وانفرجت الشدة ، وأذاقهم الله رحمة منه : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وهو الفريق الذى لا يستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم ، ذلك أن الرخاء يرفع عنهم الإضطرار الذى ألجأهم إلى الله ، وينسيهم الشدة التى ردتهم إليه . فيقودهم هذا إلى الكفر بما آتاهم الله من الهدى وما أتاهم من الرحمة بدلاً من الشكر

(١) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٥٨ بتصرف .
(٢) ينظر الإيضاح ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٤٢ .

والإستقامة على الإنابة [١].

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [٢].

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ أى : : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض عن شكر ربه ، واستكبر عن الإنقياد لأوامره ، وشمخ بأنفه تكبراً وترفعاً ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أى : وإذا أصابه المكروه فهو ذو دعاء كثير ، يديم التضرع ويكثر من الإبتهال ، وهكذا طبيعة الإنسان الجحود والنكران ، يعرف ربه فى البلاء وينساه فى الرخاء [٣].

وقد جيء بلفظ إذا مع مس الشر فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ لأن المقصود هو مس إنسان بعينه وهو الإنسان الذى إذا أنعم الله عليه أعرض ونأى بجانبه . أى أعرض عن شكر الله وحمده والإعتراف بنعمه ، وذهب بنفسه وتكبر ، ومثل هذا الإنسان يحق أن يكون ابتلاؤه بالشر أمراً مقطوعاً به .

قال الخطيب قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ بعد قوله عز وجل ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ . أى : أعرض عن شكر الله وذهب بنفسه وتكبر وتعظم ؛ فالذى تقتضيه البلاغة أن يكون الضمير فى مسه للمعرض المتكبر ويكون لفظ « إذا »

---

(١) ينظر فى ظلال القرآن جـ٥ ص ٢٧٧٠ .
(٢) سورة فصلت الآية (٥١) .
(٣) ينظر صفوة التفاسير القسم ١٥ ص ١٧ .

للتنبيه على أن مثله بحق أن يكون ابتلاؤه بالشر مقطوعاً به [١] .

ويقول صاحب التحرير والتنوير فى معنى الآية وما فيها من أسرار ولطائف : هذا وصف وتذكير بضرب آخر من طغيان النفس الإنسانية غير خاص بأهل الشرك ، بل هو منبعث فى جميع الناس على تفاوت ، إلا من عصم الله ، وهو توصيف لنزَق ـ أى طبع ـ النفس الإنسانى وقلة ثباته ، فإذا أصابته السراء طغا وتكبر ونسيى شكر ربه نسياناً قليلاً أو كثيراً ، وشُغِل بلذاته ، وإذا أصابته الضراء لم يصبر وجزع ولجأ إلى ربه يلح بسؤال كشف الضراء عنه سريعاً .

وفى ذكر هذا الضرب تعرُّض لفعل الله وتقديره الخلتين السراء والضراء .

وهو نقد لسلوك الإنسان فى الحالتين ، وتعجيب من شأنه .

والإعراض : الإنصراف عن شيء ، وهو مستعار هنا للغفلة عن شكر المنعم ، أو التعمد لترك الشكر .

ومتعلق فعله « أعرض » محذوف لدلالة السياق عليه ، والتقدير : أعرض عن دعائنا .

والنأى : البعد ، وهو هنا مستعار لعدم التفكر فى المنعم عليه ، فشبه عدم إشتغاله بذلك بالبُعد .

وفى قوله ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ كناية عن إبعاد نفسه ، أى : ولى

---

(١) ينظر الإيضاح . ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٤٢ .

معرضاً غير ملتفت بوجهه إلى الشيء الذى ابتعد هو عنه .

ومعنى ﴿ مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أصابه شر بسبب عاديّ . وعدل عن إسناد الشر إلى الله تعليماً للأدب مع الله .. وفى ذلك سرٌّ وهو أن النعم والخير مسخران للإنسان فى أصل وضع خلقته فهما الغالبان عليه لأنهما من مظاهر ناموس بقاء النوع ، وأما الشرور والأضرار فإن معظمها ينجرُّ إلى الإنسان بسوء تصرفه وبتعرضه إلى ما حذرته منه الشرائع والحكماء الملهمون فقلما يقع فيهما الإنسان إلا بعلمه وجُرأته .

ووصف الدعاء بالعريض إستعارة ؛ لأن العَرض (بفتح العين) ضد الطول ، والشيء العريض هو المتسع مساحة العَرض ، فشُبه الدعاء المتكرر المُلَحُّ فيه بالثوب ، أو المكان العريض .

وعدل عن أن يقال : فداع ، إلى « ذو دعاء » لما تشعر به كلمة (ذو) من ملازمة الدعاء له وتملكه منه [١].

(٣) قال تعالى ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ [٢].

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ . أى نحن بقدرتنا أوجدناهم من العدم ، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، حتى كانوا أقوياء أشداء .

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ أى : ولو أردنا أهلكناهم ، ثم

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة الإنسان الآية (٢٨) .

بدلنا خيراً منهم يكونون أعبد لله وأطوع[١].

قال الزمخشرى [٢] : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا ﴾ أهلكناهم و ﴿ بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ ﴾ فى شدة الأسر . يعنى النشأة الأخرى ؛ وقيل معناه : بدلنا غيرهم ممن يطيع ، وحقه أن يجيء بإن لا بإذا كقوله : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [٣] . ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ [٤].

وإنما جيء « بإذا » دون « إن » لأن شأن « إذا » أن تفيد اليقين بوقوع ما قيد بها بخلاف حرف (إن) فهو ايماء إلى أن حصول هذه المشيئة مستقرب الوقوع .

فيجوز أن يكون هذا بمنزلة النتيجة لقوله ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ الخ ، ويُحمل الشرط على التحقق ، ويجوز أن يكون قوله تعالى ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ ﴾ تهديداً لهم على إعراضهم وجحودهم للبعث ، أى لو شئنا لأهلكناهم وخلقنا خلقاً آخر مثلهم .

كقوله تعالى ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

ويكون إذا مرادا به تحقق التلازم بين شرط « إذا » وجوابها ، أى الجملة المضاف إليها ، والجملة المتعلق بها[٥].

وعن هذه الآية الكريمة يقول الشيخ سيد قطب : هذه الآية تذكّر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم ، بمصدر هذه القوة ، بل مصدر وجودهم

---

(١) ينظر صفوة التفاسير القسم ١٩ ص ٨٨ .
(٢) ينظر الكشاف جـ٤ ص ١٧٢ .
(٣) سورة محمد الآية (٣٨) .
(٤) سورة النساء الآية (١٣٣) .
(٥) ينظر التحرير والتنوير جـ ١٤ ص ٤١٠ بتصرف .

ابتداء ، ثم تطمئن الذين آمنوا – وهم في حالة الضعف والقلة – إلى أن واهب القوة هو الذي ينتسبون إليه وينهضون بدعوته ، كما تقرر في نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة ، هي التي تجري وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ .. فهم لا يعجزون الله بقوتهم ، وهو خلقهم وأعطاهم إياها وهو قادر على أن يخلق أمثالهم في مكانهم .. فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته .

ومن هنا تكون الآية استطراداً في تثبيت الرسول ﷺ ومن معه ، وتقريراً لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين .. كما أنها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين في العاجلة ، المغترين بقوة أسرهم ، ليذكروا نعمة الله التي يتبطرون بها فلا يشكرونها ، وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة ، وهو الابتلاء الذي قرره لهم في مطلع السورة[1] .

(١) ينظر في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٧٨٦ ، ٣٧٨٧ بتصرف .

ثالثاً : « لو »

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

يقول أبو السعود فى تفسيره لهذه الآية قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ شروع فى حكاية ما سيصدر عنهم يوم القيامة من القول المناقض لما صدر عنهم فى الدنيا من القبائح المحكية مع كونه كذباً فى نفسه ، والخطاب إما لرسول الله ﷺ أو لكل أحد من أهل المشاهدة والعيان قصداً إلى بيان كمال سوء حالهم ، وبلوغها من الشناعة والفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها براء ممن اعتاد مشاهدة الأمور العجيبة ، بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها ، وفظاعتها ، وجواب لو محذوف ثقة بظهوره ، وإيذاناً بقصور العبارة عن تفصيله ، وكذا مفعول ترى لدلالة ما فى حيز الظرف عليه ، أى لو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت مالا يسعه التعبير وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حين يطلعون عليها اطلاعاً ، وهى تحتهم أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها من قولهم وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته وقرىء وقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقوفاً ﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ أى إلى الدنيا تمنيا للرجوع والخلاص ، وهيهات ولات حين مناص ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ أى بآياته الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها ، إذ هى التى

(١) سورة الأنعام الآية (٢٧) .

تخطر حينئذ ببالهم ويتحسرون على ما فرطوا فى حقها ، أو بجميع آياته المنتظمة لتلك الآيات انتظاماً أولياً (ونكون من المؤمنين) بها العاملين بمقتضاها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل ، أو نكون من فريق المؤمنين الناجين من العذاب الفائزين بحسن المآب [١].

والشاهد هنا فى قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ حيث دخلت « لو » على المضارع ، والأصل فيها أن تدخل على الماضى . والسر فى ذلك هو تنزيل ذلك المضارع منزلة الفعل الماضى لصدور الإخبار بذلك الفعل عمن لا خلاف فى إخباره فكأنه وقع بهذه الحالة ، ولو كانت استقبالية لكونها فى يوم القيامة ، لكن هى فى تأويل الوقوع لكون المخبر بها لا خلف فى إخباره ، فكأنه يقال هذه الحالة مضت وما رأيتها ، ولو رأيتها لرأيت أمراً فظيعاً ... وإما لاستحضار صورة رؤية الكافرين موقوفين على النار ؛ لأن المضارع مما يدل على الحال الحاضر الذى من شأنه يشاهد ، كأنه يستحضر بلفظ المضارع تلك الصورة ليشاهدها السامعون ، ولا يفعل ذلك إلا فى أمر يهتم بمشاهدته لغرابة ، أو فظاعة ، أو نحو ذلك [٢].

(٢) قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[٣].

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٩١ .

(٢) ينظر مختصر العلامة السعد ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ومواهب الفتاح . ضمن شروح التلخيص جـ ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ بتصرف.

(٣) سورة السجدة الآية (١٢) .

هذه الآية الكريمة يخبر الله فيها عن حال المجرمين يوم القيامة وما هم فيه من الذل والهوان فقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : ولو ترى أيها المخاطب حال المجرمين يوم القيامة وهم مطرقو رءوسهم أمام ربهم من الخجل والحياء لرأيت العجب العجاب . قال أبو السعود : وجواب « لو » محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً لا يقادر قدره من هوله وفظاعته (١). وقوله ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ .

أى : يقولون ربنا أبصرنا حقيقة الأمر ، وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل ، وكنا عُميا وصما ﴿ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ . أى فردنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ . أى : فنحن الآن مصدقون تصديقاً جازماً ، وموقنون أن وعدك حق ، ولقاءك حق .

قال الطبرى : أى أيقنا الآن بوحدانيتك ، وأنه لا يصلح أن يعبد سواك ، ولا ينبغى أن يكون رب سواك ، وأنك تحيى وتميت وتفعل ما تشاء (٢).

والشاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ حيث دخلت « لو » على الفعل المضارع ، والأصل فيها أن تدخل على الماضى وذلك لتنزيل المضارع منزلة الماضى لصدوره عمن لا خلاف فى إخباره ، وإستحضار صورة رؤية المجرمين ناكسى الرءوس قائلين لما يقولون (٣).

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٦٢ .

(٢) ينظر تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ١٩٧ .

(٣) ينظر الإيضاح ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٨٧ .

وفى إستحضار صورة المجرمين وهم ناكسوا الرءوس ردع وزجر وعظة وإعتبار فيرتدع المجرم ويراجع نفسه ، ويزيد المسلم فى إقباله على الله وطاعته . وفيه أيضاً تسلية لرسول الله ﷺ .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (١).

قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى واعلموا – أيها المؤمنون – أن بينكم الرسول المعظم ، والنبى المكرم ، المعصوم عن اتباع الهوى ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ . أى : لو يسمع وشاياتكم ، ويصغى بسمعه لإرادتكم ، ويطيعكم فى غالب ما تشيرون عليه من الأمور لوقعتم فى الجهد والهلاك .

قال ابن كثير : أى اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ولو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم (٢).

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ﴾ . أى : ولكنه تعالى – بمنه وفضله – نوّر بصائركم فحبب إلى نفوسكم الإيمان ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ . أى : وحسنه فى قلوبكم ، حتى أصبح أغلى عندكم من كل شيء ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ . أى : وبغض إلى نفوسكم أنواع

(١) سورة الحجرات : الآية (٧) .

(٢) ينظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٦١ .

الضلال من الكفر والمعاصى والخروج عن طاعة الله . قال ابن كثير : والمراد بالفسوق الذنوب الكبار ، وبالعصيان جميع المعاصى [١].

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ . أى : أولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون ، الراشدون فى سيرتهم وسلوكهم ، والجملة تفيد الحصر . أى : هم الراشدون لا غيرهم [٢].

والشاهد فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ حيث دخلت لو على الفعل المضارع والأصل أن تدخل على الماضى ، والسر فى ذلك هو قصد إستمرار الفعل .

أى استعمالها فى ذلك مع المضارع لنكتة اقتضاها المقام ، وهى إفادة أن الفعل الذى دخلت عليه استمر فيما مضى وقتاً فوقتاً ؛ لأن نفى إستمراره على طاعتهم التى هى المراد بالفعل هو الذى كان سبباً لنفى عنتهم ؛ بمعنى أنه لو استمرﷺ على طاعتهم ؛ أى : موافقتهم فى كل ما يعرض لهم ترجيحه بحسب رأيهم لهلكوا لذلك ، ولما انتفت الموافقة فى كل شىء التى هى إستمرار الطاعة انتفى هلاكهم [٣].

قال صاحب التحرير والتنوير : وصيغة المضارع فى قوله ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ مستعملة فى الماضى لأن حرف (لو) يفيد تعليق الشرط فى الماضى ، وإنما عدل إلى صيغة المضارع لأن المضارع صالح للدلالة على الإستمرار ، أى لو أطاعكم فى قضية معينة ، ولو أطاعكم كلما رغبتم منه ،

(١) ينظر مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٦٢ .
(٢) ينظر صفوة التفاسير القسم ١٦ ص ٤٧ ، ٤٨ .
(٣) ينظر مواهب الفتاح . ضمن شروح التلخيص جـ٢ ص ٧٨ بتصرف .

أو أشرتم عليه لعنتُّم ، لأن بعض ما يطلبونه مضر بالغير ، أو بالراغب نفسه فإنه قد يحب عاجل النفع العائد عليه بالضر (١) .

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢٣٥ .

الخـــاتمــــة

بعـد هذا العـرض والدراسـة الموجـزة لبـعض ايات القـران الكريم المشـتـملة على حـرف من حـروف المعـانى وكـان له فى مـوضـعـه أسـرار ولطائف لا يعطيها ولا يفيدها حرف آخر مكانه ويؤدى ما أداه من دلالات وأسـرار ، وبعـد مناقشـتـهـا ومـحـاولـة الكشف عن مـا تضـمـنتـه من أسـرار وإيحاءات لخـير شاهد على عظمة النسق القرآنى وبلاغته كما أنها تـدل على حكمـة عـاليـة ، ونمط فـريـد من القـول لا يرقى إليـه أسلوب بشـر وصدق الله العظيم حين قـال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً ﴾.

ذلك النظم البـديع المعـجـز بما إحـتـوى عليـه من أسـرار عـاليـة ، ومعانى دقيقة يبين الإعـجاز فى أنه لو تغيرت الصـيـاغـة فى غيـر القرآن لذهب السر ، وضاع الإيحاء ، وغاب ما يقتضيه النظم من مدلول دقيق ومغزى عميق ، وحكمة بالغة .

فقد رأينا ما أفادته الباء فى قوله تعالى ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وحرف الجر « من » فى قوله تـعالى ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ولا يغنى أحـدهمـا فى مـوضـع الآخـر ، ولا يفـيـد مـا أفاده .

وإيثار الباء على حرف الجر « عن » فى قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ومـجـيء على دون اللام فـى قـوله تـعـالـى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ إلى غـيـر ذلك من الآيات التى تعرضت لها بالدراسة والتحليل ، فى هذا البحث ، والتى كشف عن بعض الأسرار فى إيثار القرآن الكريم لفظا على لفظ .

فسبحان من هذا كلامه فما كشف عنه الدارسون والباحثون فيه من أسرار ما هى إلا قطرة من بحر خضم ممتلىء بالذخائر والنفائس ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه

أهـم المراجـــع

م	اسم المرجع
١	القرآن الكريم.
٢	فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى . ت / طه عبد الرؤف سعد ـ دار الغد العربى .
٣	صحيح مسلم ـ شرح المنياوى ـ طبعة دار الريان للتراث .
٤	الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ـ دار التراث.
٥	إعراب القرآن وبيانه ـ تأليف الأستاذ محيى الدين الدرويش
٦	الإعجاز القرآنى ـ وجوهه وأسراره للدكتور عبد الغنى بركة ـ مطبعة وهبة .
٧	إعجاز القرآن ـ لأبى بكر الباقلانى .
٨	الإنتصاف على الكشاف لابن المنير الإسكندرى ـ المالكى
٩	الأنساب ـ للسمعانى ـ طبعة ليدن .
١٠	الإيضاح لتلخيص المفتاح ـ شرح الشيخ عبد المتعال الصعيدى .
١١	البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية د / محمد محمد أبو موسى ـ مكتبة وهبة .
١٢	البلاغة العالية للشيخ عبد المتعال الصعيدى ـ مكتبة الآداب للطبع والنشر .
١٣	التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ـ دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس .
١٤	تفسير أبى السعود ـ المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ الطبعة الأولى المكتبة الحسينية المصرية .
١٥	تفسير البيضاوى ـ طبعة بولاق .

تابع أهم المراجع

م	اسم المرجع
١٦	التسهيل .
١٧	تفسير القرطبى .
١٨	تفسير القرآن العظيم - لابن كثير القرشى - مكتبة شباب الأزهر .
١٩	تفسير الطبرى - لابن جرير الطبرى - المطبعة الأميرية
٢٠	ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن - دار المعارف .
٢١	حاشية الدسوقى - على هامش شروح التلخيص .
٢٢	حاشية الصاوى على الجلالين .
٢٣	خصائص التراكيب - للدكتور محمد محمد أبو موسى - مطبعة وهبة - الطبعة الثانية .
٢٤	درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز للإسكافى - الطبعة الأولى سنة١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م
٢٥	دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى - شرح وتحقيق د / عبد المنعم خفاجى
٢٦	روح المعانى - فى تفسير القرآن العظيم - والسبع المثانى - للألوسى - دار الغد العربى
٢٧	زاد المسير
٢٨	شرح ابن عقيل - شرح وتعليق محيى الدين عبد الحميد - دار التراث
٢٩	صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى - دار القرآن الكريم -

تابع أهم المراجع

م	اسم المرجع
٣٠	عروس الأفراح ـ ضمن شروح التلخيص .
٣١	فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ـ للشوكاني .
٣٢	فى ظلال القرآن الكريم ـ للشيخ سيد قطب ـ دار الشروق .
٣٣	الكشاف ـ للزمخشرى ـ مطبعة بيروت .
٣٤	لباب النقول فى أسباب النزول لجلال الدين السيوطى ـ على تفسير الجلالين ـ مطبعة الحلبى .
٣٥	المختصر ـ لابن كثير .
٣٦	مختصر سعد الدين التفتازانى ـ ضمن شروح التلخيص .
٣٧	مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى ـ دار الغد العربى .
٣٨	معجم الأدباء ـ لياقوت ـ مطبعة دار المأمون .
٣٩	معجم البلدان .
٤٠	معانى الحروف للرمانى .
٤١	المغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى ـ دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبى .
٤٢	مواهب الفتاح ـ لابن يعقوب المغربى ـ شروح التلخيص ـ عيسى الحلبى .
٤٣	النبأ العظيم ـ للدكتور عبد الله دراز .
٤٤	همع الهوامع ـ شرح جمع الجوامع للسيوطى .

محتويـات الكتـاب

رقم الايداع بدار الكتب
٩٢٧٧/ ٢٠٠٢ م
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-298-248-X
بتاريخ ٢٠٠٢/٥/١٣
طبع ونشر: مصر للخدمات العلمية
٧٣-شارع مصر والسودان-حدائق القبة